خالد محمد خالد
– من العلماء –

مواطنون .. لا رعايا

« اذا ما سئلت : هل الشعب جدير
بأن يكون حرا ..؟
« أجيب سائلا : وهل هناك فرد جدير
بأن يكون مستبدا ..؟ »
(جون رسل)

الطبعة الثانية



الثمن ١٢ قرشاً

دار النيل للطباعة
شارع القاضى – عابدين ، القاهرة
تليفون ٥٨٨٥٥

خالد محمد خالد
ـ من العلماء ـ

مواطنون .. لا رعايا

« اذا ما سئلت : هل الشعب جدير
بان يكون حرا .. ؟
« اجيب سائلا : وهل هناك فرد جدير
بان يكون مستبدا .. ؟ »
« جون رسل »

الطبعة الثانية

دار النيل للطباعة
شارع القاضي ـ عابدين ، القاهرة

الإهداء

إلى الذين —

ضاقت صدورهم بالظلم ..

وطال شوقهم إلى الحرية ..

ويتساءلون : أين الطريق ..؟

فى هذا الكتاب

مقـــدمة

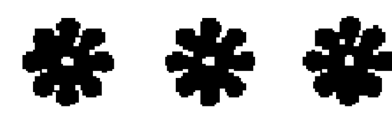
هذا كتـــاب يجىء مع الربيع ، ليبشر بالحرية أمة أضـــناها صقيع الاســـتعباد . .

ويدعو المواطنين جميعا أن يؤمنوا بالحرية ، ويكرسوا حياتهم حتى يفيئوا كما ولدتهم أمهـــاتهم أحـــرارا . . لا تلفحهم مقايظ البطش ، ولا يحتدم عليهم أوار القمع والأرهاب . .

وهو قد كتب لتقرأه جميعا . . فاذا تواثبت بين صـــفحاته وسطوره ، فقد اختصرت رحلةالربيع ياصديقى . . ثم هـو ليس جديدا عليك . . ولا بعيـــدا عنك . . فكل كلمة فيـــه خفقة فى صدرك ، أو دمعة فى عينك ، أو أمل يتململ بين حناياك . .

كما أنه ليس بحثا علميا فى الســـياسة أو الاقتصاد او الفلسفة أو التـــاريخ . .

بل تصويرا نحسبه صادقا لأحاسيس الشعب حيال أمنيتـــه الكبرى ـ الحـــرية . .



ولقد كان كتابنا الأول ـ من هنا . . نبدأ ـ دعوة خالصـــة لتحرير الشعب من الجوع والوهم . .

وهـذا الكتاب دعوة مماثلة لتحريره من العبودية والظلم . . واذا الجماهير جاعت ، وخافت ، فقد تقطع ما بينها وبين الحيـــاة من عروة وسبب . . وحق عليها فى مجال مقارنتها بالعالم الحـــر قول الشـــاعر العربى :

زعمتم ان اخـوتكم قريش لهم الف ، وليس لكم الاف
اولئك امنوا جوعا وخـوفا وقد جاعت بنو اسد وخافوا

* * *

ونحن نعلم ان فى بلادنا فئاما من الناس يتساءلون فى حنق : — لماذا نكتب .. ؟ ولمــاذا ننقد .. ؟ ولماذا لا نغمد أقلامنا ، ونرخى علينا ستورنا .. ونامر ابصـــارنا أن تغمض ، وتغضى على الذل اشــــفارها .. ؟

ولكن — اذا رأينا نارا ماردة تجتــــاح أهلنا وعشيرتنا — تلفح وجوههم ، وتشوى ابشارهم ، وتجلجل عليهم جلجلة الجحيم ..

ثم اقتربنا بمضخات الانقاذ — نكافح النــار المجنونة ، ونطفىء غيظ هذا السعير ..

انكون قد اجترحنا خطيئة ، واقترفنا وزرا .. ؟

كلا — وهذا هو جوابنا للذين يتساءلون .. واعتذارنا عن الواجب الذى نهب لبذله وادائه .. وانه لمن نكد دنيـانا أن يصير الوفـــاء بالواجبات العامة امرا يستحق التبرير والاعتذار .. !

* * *

اننا حين ندير أبصارنا فى هــذه الرقعة المظلومة من الأرض .. الرقعة التى تضمنا ، وتضــم ما حولنا من الأمم الجاثيــة .. نرى شعوبا قد أحاطت بها خطيئتها — من اســـتعمار دخيل تتضرم هواجره .. واستبداد وبيل تتوقد لوافحه ..

على كل شبر من أرضها — آثار أقدام الغزاة ..

وعلى كل ظهر من ظهور بنيها — معالم سياط العتاة ..

فلمـــــاذا .. والام .. ؟

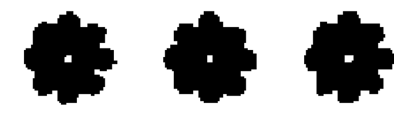
لمـــاذا يحرمها الاســـتغلال من لقمتهـــا .. ؟

ولمـــاذا يحرمها الاســتبداد من حريتها .. ؟

ولماذا يحرمها الاستعمار من سيادتها . . ؟

ولماذا يأتمر براحتها ، وحياتها قوم ليسوا من أصلابها ولا من ترائبها . . ؟

والام يذل أهلها ، ويعز فيها الغرباء . . ؟!



ان أهدافنا اليوم لتتركز جميعها فى الحرية . .

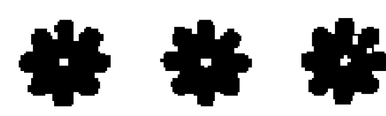
فلنجرد روح الحكم من الهمايونية والتفرد والبغى . .

ولنجرد روح الشعب من الاسترابة والتربص والخوف . .

ولقد مضى هذا الكتاب يرتاد لنا الطريق . . ثم عاد وعلى محياه وعثاء السفر ، واشراقة الظفر ـ ليحدثنا عما رأى ـ ويستحثنا للمسير . .

فلنمض معه فى خطوات أكيدة مطمئنة . . مسلحين بروح الحرية نفسها . .

روح الحرية الذى يضع التفاهم مكان العنف ـ والفكرة موضع القذيفة .. والوضوح بديل المؤامرة .. والغيرية الفاضلة مكان الأنانية الباغية . .



ونحن على يقين باننا لن نجد حاكما تفىء منه لبلادنا وشائج القربى والرحم .. يشبط مسعانا ، ويعترض ركبنا ، ويتحدى مشيئة وطنه ومواطنيه ..

واذا خاب يقيننا ، ووجد هذا الحاكم ، فليتقبل منا هذا النصح الأمين . .

ان الحرية لا تغلب ابدا . . وهى تقتات بالمقاومة ، وتزدهر بالتحدى ، وتترقرق الحياة فيها كلما هطلت عليها السنة السياط .

وكما قال فيلسوف كريم : « الذين يكافحون الحرية بالبطش ـ كالذين يكافحون الحريق بقاذفات اللهب » وانا لأكثر برآ بالحاكمين من انفسهم . . حين ننهاهم عن الأنانية والعدوان . .

ما صالحهم فى أن يفقدوا محبة الشعب ، ويظفروا بعداوته ؟

ما صـــالحهم فى أن يبيعوا مكانهم المرموق فى التاريخ . . بلذة عاجلة ، وحظوة آفلة . . ؟!

* * *

ان الاستعمار يكيد لنا ـ حكومات وشعوبا ـ ويريد أن يضرب بعضنا ببعض ، ويؤلب بعضنا على بعض . . فلنحذره .. ولنؤاخ بين كفاحنا المشترك من أجل التحرر والخلاص .

* * *

ويأايها الذين ينتظرون موكب الحياة ليستردفهم وراء ظهـــره كما يستردف اللقطـــاء . .

ســـيروا وحدكم وقابلوه فى الطريق . .

سيروا . . قبل ان يطول بكم الانتظار . . .

خالد محمـــد

مقدمة الطبعة الثانية

إلى المواطنين الأحرار أهدى ، وأقدم هذه الطبعة الثانية من كتابهم — مواطنون لا رعايا — لقد نفدت منه فى الوجبة الأولى خمسة آلاف نسخة فى ثلاثة أيام .

وما فرحنا بهذه المعجزة لربح مادى سيدخل جيوبنا ؛ فالذين يعرفون فداحة أسعار الورق والطبع هذه الأيام ، ويقارنون بينها وبين سعر الكتاب المتواضع ، يدركون أننا لن نذهب من المال إلا بمثل حَسْوِ الطائر القنوع ..

لكننا فرحنا لما لها من دلالة باهرة مبشرة بمدى ما وآتى شعبنا الخالد .. شعبنا الباسل .. من يقظة وانتباه .

خالد

شَعْب في السلاسل ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ، تبينوا مواضع الطرق .. وقبل ان تمضوا الى الغاية مثقلين ، طهروا أرجلكم من الاغلال ، وخففوا كواهلكم من الاثقال »

خالد

عصر الشعوب ..

على ظهر هذا الكوكب ألفا مليون من البشر ، قرروا من غير لقاء تم بينهم أن يحققوا حرية الشعوب، ويرفعوا الوية الجماهير ..

وهو قرار أزلى قديم .. !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على انفاذه أرسلوا رائدهم .. زميلا من البواسل الامجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق .. ! وبينما هو ماض الى غايته ،دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ، والرماح ، والسيوف .. وطفقوا يصلونه من نقمتهم سعيرا .. واذ هو يفكر - فى غمرة المباغتة - ايمضى قدما أم يعود - صاحت به الاجيال المستقرة فى ضمير الغيب :

تقدم .. فليس الى مرد من سبيل ..!

وانطلق من جديد يحمل الامانة الكبرى فى شجاعة وايمان ، وبسق طريقا محفوفا بالمكاره والاخطار . . وكلما مر على ملأ من صنائع الشر سخروا منه وتألبوا عليه .. !

لقيته الجيوش فى موج كالجبال .. شارعة حرابها ، فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق .. وتدفق الباقون يخنون فى الارض المجهولة لا يلقون لهواتف اليأس سمعا ولا بالا .. !

لغيه المرجفون والمتبطون ،وحاولوا ايهامه أن السفر طويل، والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ،والهدف جد بعيد .. فنفاهم عن طريقه ومضى ..

تصدت له قصور الاباطرة ،والقياصر .. تسد الطريق وتزحم الافق .. تطأ بقواعدها أرض الناس ، وتتحدى بأبراجها سماء الله .. فدمدم عليها ، وتركها كثيبا مهيلا .. رحلة الضنى

والهول .. كلما تقطعت دون غايتها أنفاس جيل أسلمها الى جيل .. وكلما انجز تبعاته رعيل، نهض فى أثره رعيل ..

وكانت رواية فذة .. اختلفت مناظرها وتغير أبطالها . لكن موضوعها لم يتغير .. !

ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية .. !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط .. وأخرى ترفع قبل العيون منى عذابا .. وآمالا رطابا .. !

مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة .. وأخرى تنساب وديعة ساكنة كأشعة القمر .. !

فى بداية الطريق ظلام ، ويأس، ثم محاولة وتردد ، ثم اقتحام وتحد.. وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم . وأعاصير وعواصف . ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الافق البعيد شمس الحياة والحرية والحضارة . .

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرور ضرير .. !

وفى ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع .. ولا يؤرقهم خوف .. والذين لا يزالون مقرنين فى الاصفاد ..!

***

وما أشد حاجتنا الى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه ،ونرى.!

لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات يوم ينشد من شعره ما يثير ذكريات الجاهلية الاولى ... ولكانما شق الحديث على عمر فهب فى وجهه بصيحته الزاجرة .. فقال له الرسول :

دعه يا عمر يذكرنا بأيام الله ، قال لنا فيها عظة وعبرة . . !
فليتنا نستطيع أن نتذاكر أيام الله فى هذه البشرية الكادحة ،

لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطغيان والكبت .. وكيف انتقلت من عهد الوحدانية الحاكمة ــ الى عصر الشعوب وحكم الشعوب ..

فبعد أن كان أمير الاقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : «نبايع صاحب الحق المطلق فى حياتنا».

اصبحنا نقرأ مكانها .. لكل انسان الحق فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى العيش آمنا مطمئنا ..

وبعد ان كان حسن الجوار بين أمير وأمير يقوم على تبادل هذا النص المخزى : « أتعهد الا اعتدى على أرضه ومواشيه ورعاياه العبيد » ..!

صرنا نقرأ بديلها : « لا يجوز ان يعيش انسان فى الرق والاستعباد »

وبعد ان كان الناس ــ كما يقول أوليفيه :

« .. يسخرون لصيد الضفادع من الغدران كى لا تقلق الامير الاقطاعى من نومه »

« ويجلدون بالسياط اذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم .. ويقذفون فى السجون اذا عارضوا رغبة الملك وبطانته فى الولوع بزوجاتهم أو بناتهم »

بعد أن كان ذلك كذلك .. اذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء. فلا يسخرون لصيد الضفادع ،ولا يجلدون بالسياط،ولا يستباح لهم عرض أو تنتهك لهم حرمات. والآن . لنتذاكر أيام الله فينا .. فى أمتنا التى أتعبت التاريخ وأتعبها .. لنبصر مكانها فى عالم اليوم ، فاذا كانت لا تزال جاثية مصفدة ــ نقبنا عن الاوتاد التى تشدها اليها .. وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذى يحجب عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن أفق طالما بزغت فيه

حضارات ألهبت أشعتها الدافئة ـ الانسانية المقرورة المرعشة بعد أن عادث فيها الصقيع ..

نحـن نحس اننـــا فى بلادنا مستوطنون ، لا مواطنــون . . ورعايا ، لا أكفاء ..

رعايا كل حاكم مستبد ، وكل اقطاعى كبير ..

رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد والاجتماع ..

رعايا استعمار مضى ـ ولايزال ينالنا بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا فى الضباب والظلمات .

ويوشك الذى حاق بالهند ان يحيق بنا .. فالبرهميون الذين غزوها وفتحوها ـ أصبحوا هم الهنود .. أما الهنود الاصيلون ، فقد جرفهم الموج والقـاهم على الشاطىء البعيـــد نثارات ..! وصار اسمهم المختار ـ المنبوذين .

فلنحاول قبل أن يبلغ المـوج بنا مداه ..

ولننظر السلاسل التى صفدتنا بها الحوادث ، ونفضها .. حتى نقدر على التجديف ومغالبـــة الطوفان .

واذا نحن علمنا أن روح الامة يسيطر على مصايرها ومستقبلها ، وأن هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعده وتثقله وتخذله .. فقد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهـــير الروح من رواسب المــاضى . . .

وتطهير الضمير من مخاوفه .

وتطهير العقل من أوهامه .

وتطهير الارادة من ســلاسله الغلاظ ..

وقبل أن نحمل مطارق التحرير ـ يجب أن نتبين مواضع الطرق

.. وقبل أن ننطلق الى الغـايةمثقلين ــ علينا أن نطهر ارجلنا من الاغلال ..

انالفساد الذى أرهقنابمنـاقه،واعناته ــ هو الاستعمارالتركى. ثلاثمائة عام سويا ..

ثم امتداده الذى تلقف منــهالعهد ، وســار على الدرب ، ولا يزال يسير . وهو الاســــتعمارالبريطانى

ثم النظم التى تقمصتها روحالاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها. وأهمهاالبرلمانالبرجوازى .. ثم النفسية الواهنة المريضة التى اثمرها الاستعمار ، وقسمهاعلى ذاتها ــ وتتمثل فى الغـرائز المكبلة الناقمة ..

وسنتحسس الآن بايدينا هذهالقيود ، قيدا ، قيدا . ولن نطيل المكث معها ــ فحســبنا أننتبين طبيعتها ، ونقف على عوامل بقائها ــ ثم نعنى العناية المســـتطاعةبفطمها ، والخلاص منها .

طوفان رجيم ..!

ذات يوم ، وانا اطالع فى كتاب« ازمة الضمير الاوربى » التقت عيناى بآية رائعة نحيت الـكتاببعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعانى الجليلة التى تشف عنهــاهذه العبارة الجامعة ، وبلغ من اشراقها ان اضاءت لى مابين يدىوما خلفى .. ورسمتأمامىنهجا كاملا للحرية والخلاص . . أمــاالعبارة فهذه :

يقول فنيلون ــ « ان الغــزاةالكبار الذين نخلع عليهم صـفات التمجيد .. اشبه بتلك الانهارالتى تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الارض الخصبة التى كانعليها فقط أن ترويها .. »

ترى كم من الغزاة الذينتطفلواعلى بلادنا يجللهم هذا الوصف، ويحتويهم داخل اطاره الاســودالرهيب .. ؟

سنراهم الآن رأي العين . .أولئــك الذين حســبهم آباؤنا

الطيبون أنهارا تجرى بالخصب والنماء ، فشقوا لها الارض ، ومهدوا أمامها الطريق ــ وفى أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون الحب والثمار ، فاذا الارض خراب يباب .. ليس فيها ما يهتز سوى نفحات القر ، وسبرات الشتاء!

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ، وطوفانا رجيما ــ تبر الربوع تتبيرا .. !

نعم ــ هذا هو الذى حدث ــ فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا زعموا أنهم هداة لا غزاة .. ومصلحون لا فاتحون .. وأنهار غاية سعيها أن تروى الارض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .. أنهار ستروى الشعب بالمعارف جميعا .. المعارف السياسية لينهض ويسود ، والادارية لينظم نفسه ويسوس أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة . ويمضى مع الركب العليم الرشيد ..

ثم ألفيناهم جميعا فى سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر ما كانوا فى سباق هائل نحو الوعود المبذولة ، والمزاعم الجريئة ..

ألفيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العاتية الصاخبة ما كان الشعب قد ناطه به من منى وأمل .. وجرف فى عنفوان وجنون بقايا جلده وتماسكه .. والتهم فضل ماخلفته الايام بيديه الضامرتين من قوت .. ثم مضى يتجشأ فى استهتار ــ ويواصل تساوقه وانحداره فى عربدة منقطعة النظير ..! ليست هذه الكلمات شعرا ، ولا مبالغة .. ولنستمع الآن للتاريخ القريب لا البعيد ، فأن لنا فيه عظة وعبرة .

ولكننا فى هذا النطاق لن نبسط حوادث .. ولن نتقصى وقائع ، فليس هذا الكتاب سجل تاريخ ــ وغاية ما سنصنع أن نرفع تجاه الابصار أعتى نماذج الاستعمار الذى عاث فى أرضنا ، وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركى ... والاستعمار الانجليزى

وانما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، واشد عراما وكيدا — ولأنهما لا يزالان يلفاننا في مثل الضباب من احتلال بريطاني جاثم .. ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركي ، واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ — الاستعمار التركي ..

تركي = طاغية .. !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركي تستبد بنا طبيعتنا الازهرية التي تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه. وتأبى الا أن تحلل لفظ «تركي» فما هو .. ؟

ولنذكر أولا — أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين الانسان واسمه ولقبه ..

ويضرب علماء النفس لنا مثلا — رجلا اسمه « صعب » ، فان دوام انصباب هذه التسمية في سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن بطابعها ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لا ريب هو سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماؤهم من هذا القبيل .

فقد أبدل باسم « حرب » — وكان يحمله بعض أصحابه « سلما » ... وأبدل باسم «أجهم» اسما آخر هو «سمح».

هناك اذن وحي مستمر توحيه أسماؤنا الينا ، ويلون الى حد كبير طباعنا ..

أيكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغيان ؟

ولكن — هل كلمة تركي ترادف طاغية ، حتى ننشد بينهما هذا التلازم والانسجام .. ؟

نعم — فالترجمة الحرفية لكلمة تركي هي — طاغية !

يقول العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف : —

« وقد خرجت من جبال التابي قبائل ، وتفرقت فى انحاء آسيا العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توركو، كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانية ـ اسما جنسيا للقبائل المتوحشة ..

وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية .. او عات ..

« ويذهب كثير من المؤرخين الى أن الاتراك كانوا يلقبون قديما بالمدمرين .. »

ونحن على ذلك من الشاهدين .

فلقد دمرونا باحتلالهم، وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ... وسنرى الآن من حكامهم طرازا مقام يوم واحد فى هجيرهم عذاب يتواضع ازاءه عذاب الجحيم ! وانها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفزع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركى .. فتعالوا لننظر ما خلفه فى ضمائرنا من قروح ، وفى أرجلنا من أغلال .. !

فمنذ عام « ١٥١٧ » ـ يوم غزا السلطان سليم بن بايزيد لمصر، الى ما شاء الله من أعوام، والشعب المصرى فى باستيل تركى يروض فيه على الذل والغش والجاسوسية وفى محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد .

ولقد افاد الانجليز حين استعمرونا بعبقرية الاتراك القدماء فى البغى والفساد .. وطبقوا مناهجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل ..!

ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة؟

والواقع انه من مخلفات الاستعمار التركى . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق. فلما جاء الانجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه !

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل باسوأ معاني الكلمة ـ فى وضع هذا المبدأ الفاجر واستعماله . .

فقبل أن يغادر مصر الى تركيا مزق السلطة فيها الى ثلاث مزق ـ وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الاخرى كى يدوم الشقاق بينها جميعا .

وهو صاحب هذه الحكمة الخبيثة :

« اذا اختلف الذباب وتناحر . ضمنت لنفسك نوما طويلا » !!

ا ـ النهب والاقطاع . .

ولقد شرع السلطان سليم لابنائه وحفدته فضيلة انتهاب الامم وسرقة الشعوب . . فان « جورجى زيدان » يحدثنا فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ان هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والاسكندرية ، وحين ازمع الرجعة الى بلاده نقل معه الف جمل محملة ذهبا وفضة واسلابا اخرى ! ارايتم . .؟!

لقد هام كالكلب المسعور فى بلاد لا تربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان، ومضى ينهش كل لقمة فى كف ـ وكل درهم فى جيب . .

وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان . . فأعلن فى فرمان رسمى « أنه المالك الحر لجميع أرض مصر . . » !!

ووزعها اقطاعات على مزارعين دعاهم «الملتزمين» . . نظير خراج باهظ ! . .

ووجد من الاربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر فى عهده كل عون لمظالمه وتتبيت لسياسته

واذن فنظام الاقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم . . ثم لم ترحل معه يوم رحل ـ بل ظلت على شكل باذخ مشهر . .

ب ـ الرشوة .. !

والاستعمار التركى هو الذى دنس ضمير هذا الشعب بالرشا .. فلقد وجد نفسه على دين عصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة .. وكل هؤلاء يشهدون أن لااله الا الله ، وان الرشوة والانتهاب من طيبات ما أحل الله ..!

تصوروا أن الباب العالى نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويثيب عليها .!

يقول « بركهاردت » : (١)

« يطلب الباب العالى الموارد .. ولا شيء سواها . ولكى يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الاعباء الثقال .. أما الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ويجعل الغلبة فى مجالسه للعدالة فانه بجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه ـ لا لأنه عادل ، وانما لان عدالته تمنعه من النهب. ومن نقل جانب مما ينهب الى الديوان . واذا أراد الباشا أن يبقى على نفسه، فليس أمامه من سبيل الا أن يسلم فى صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد .

وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة » ! !

اذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد ..

كانت الرشوة طريق الوصول الى قلب السلطان ، وكان الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ،ويقنع بالايراد العام ، وبجعل الغلبة فى مجالسه للعدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

---

(١) الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الاوسط ـ تعريب دكتور راشد البراوى

ويعني « بركهاردت» بالمليك هنا ـ السلطان التركي .. ونحن نعني ذلك أيضا ..

كان الباب العالي يطلب الرشوة من ولاته ، وولاته يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة .. لذلك كانت عملة متداولة مشروعة !

ويحدثنا كتاب « الكافي » في جزئه الثالث :

« ان علي باشا الصوفي أحد ولاة السلطان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم .. مما أغرى الدهماء والخطرين بأمن الناس ..» !!

وكان خلفاؤنا الابرار يبيعون المناصب جهرة ..

فيحدثنا عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه « تاريخ الحركة القومية » ناقلا عن المستشرق مارسل .

« .. ان تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى آخره انحصر في تعاقب الباشوات الاتراك على ولايتها.. فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الآستانة .. ويظل الباشا في منصبه لا عمل له الا جمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يغادر منصبه .. » !!

وبهذا نرى أن الحكام الاتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهم .. والذين يرشون ويرتشون في وضح القانون . .كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة ، والرشوة الحرام ..!

ج ـ الغدر والارهاب ..

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركي المديد من

غدر مسلح ، ومؤامرات موصولة وارهاب رجيم ..!

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض .. بل والخلفاء أيضا يتآمر الابن على أبيه ، والاخ على اخيه .. وتفننوا فى الاغتيال وحبك المؤامرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هى الشيء الوحيد الذى يتناولونه بيد الاستاذية البارعة المتفوقة.

ولو انك معى الآن تقلب الصفحات التى أقلبها من تاريخ استعمارهم الاسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى

ان القلم ليجفل فى مسيره .. وأكاد أشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين .! واسأل نفسى : مم تخافين ، وقد ذهبوا ..؟

ربما تفزعها تلك الاشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها رؤوس الشياطين . .

وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا رعبا ..!

حين تقرأ مثلا ان « محمود باشا التركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون الف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهرا بالغبطة والشكر .. ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته .. ثم يأمر بخنق القاضى المصرى « يوسف العبادى » .. ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه .. ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحيى نساءنا .. عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم أن بجواره مئات الانباء والمذابح .. وامش

الهوينا ، فالطريق التى امامك مضرجة بجثث آبائنا الذين صرعوا جهرة ، اواغتيلوا في الظلام البهيم .. !

ـ دنشواى .. التركية .. !

واذا كنا نحتفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة «دنشواى» التى اعدم فيها الانجليز خمسة من مواطنينا فى ظروف معروفة .. فان هناك فى تاريخ الاتراك فضيحة مشابهة .. تجعلنا نعتقد ان الانجليز كانوا مقلدين فى جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

واذا كانت (دنشواى) .. التركية .. لم تأخذ فى التاريخ مثل المكان الذى اخذته (دنشواى) الانجليزية ، فلأنها لم تكن (دنشواى) واحدة .. بل كانت تتكرر دائما كوسيلة لاذلال الشعب ، واسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات العادية فى شرع الاتراك ..!

حدث ان استولى « محمود باشا التركى » على جميع تركة «ابراهيم الدفتردار» امير الحج وكانت مائة الف دينار ، وجبى من الناس بواسطة السوط والارهاب مثلها .. ثم رفعها الى الاستانة ليرضى عنه مولاه .. وعلم القاهريون ذلك وكانوا قد التمسوا من السلطان عزله علموا أن الرجل قد اشترى سلطانه وسيده بهذه الهدايا المنهوبة .. فكمنوا له فى الطريق وقتلوه .. وفر القاتلون .

وأرسل سوء الطالع فى هذه الطريق جماعة من الفلاحين لم يشتركوا فى القصاص من محمود باشا .. بيد أن الحاشية التركية للحاكم الصريع التمست لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس الاسباب التى التمسها الانجليز فيما بعد لاعدام ضحايا دنشواى وبث الرعب فى البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية، التي تخفف عنا لأواء هذه القساوة أن نستمع لبعض الاشعار التي تغنى بها الناس عند ماخر ذلك الوحش التركي السائب .

الى محمود باشا يوم نحس فساقته منيته غصيبة
تجاه الناصرية خلف حبط بغيط جاءه منه مصيبة
بندقة رماه كف رام فسددها فجاءته مصيبة . !

هـ ـ الذلة ..و العلة ..!

ورسم الاستعمار التركي سياسة لاذلال الشعب، وافنائه .. وان ما نعانيه اليوم من جبن عقلنا الباطن، وتوجس عزمنا وارادتنا لاثر محتوم لما انزلوه بنا من رعب وبطش .. لقد انشبوا قسوتهم في الشعب وشردوا طمانينته . وضاقت عليه المحاولات بما رحبت . وبقيت لذلك مثلا ـ تلك القصة التي تروى عن احد الولاة الاتراك حكم هذا الوالي على مصري بالاعدام .. وعند التنفيذ شدوا وثاقه، و ربطوه الى سارية . . ثم سالوا : الك حاجة قبل ان تموت ؟ ..

قال : نعم .. ان انقل الى سارية اخرى ..

ففصموا وثاقه .. واذ هو في طريقه الى العمود التاني : توفى الوالي الذي حكم باعدامه . وولى الامر بعده وال جديد .. الغى حكم الاعدام ، وافرج عن المصري المسكين ..!

ان هذه القصة لم تقع ،وانما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ القهر الذي اخذ بخناقهم . وهو ان الامل الذي ناطوا به خلاصهم . فالجماهير المضطهدة المغلوبة على امرها بعد أن عجزت عن مواجهة جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تتمنى .. وتتخيل، وحتى خيالها كان مكبلا يدور في مدار ضيق مساحته تلك الاشبار التي تفصل بين ساريتين ..!

ومن هنا اذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : «من خطوة لخطوة .. يأتى الله بالفرج» .

انه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بغى الاستعمار التركى الذى حرم الناس حتى من رحابة الامل ..!

وكان للاسقام والافناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للاذلال ..

ولكن ماصالح الاستعمار فى اذلال الناس بالعلة ، وافنائهم بالجملة وهو فى حاجة اليهم ليخدموه ..؟

والجواب على ذلك ـ ان سليمان بن سليم كان قد اصدر الفرمان الذى جعل نفسه به المالك الاوحد لجميع ارض مصر ـ وهو لن يزرعها بيده طبعا فأعطاها .. للملتزمين .. نظير ضرائب فادحة لاتبقى للملتزم سوى مسكه الرمق ولكن هذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من اطماع سليمان . غير الحكيم . فاشترط أن تؤول اليه جميع تركات المتوفين الذين لاعقب لهم ولا وارث ، وبقى هذا المرسوم نافذا بعد خلافته ومماته .

ثم تطاول العهد ـ فكان الباشوات الاتراك يجبون هذه التركات لأنفسهم ، وليرشوا بها السلطان ايضا ـ فاشتد حرصهم على ان يموت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط ..!

وطبعا لا سبيل لتمييزهم فأتاحوا للاوبئة ان تتخذ من بلادنا مزارا ووطنا لتحقيق لهم الغرض الدنىء ..ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال .

ومن هذا الاحصاء المتواضع ندرك مبلغ ماكان بين الاوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف ..!

ففى عام ١٠٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة الف نفس

وفى عـــام ١٠٣٥ اجتاح مصروباء صرع ثلثمائة الف نفس
وفى عـــام ١٠٥٠ اجتاح مصرطاعون خرب مائتين وثلاثين قرية
وفى عام ١٧١١ اجتـــاح مصرطاعون اسماعيل ـ وصرع ستين الفا . . (١)

هذه الاوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الاقدمين ـ حملة ميكروبات ـ للوهن والسقـــم توارثنـــاها . . ولا تزال أرحام الامهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوارثات .!.

ونلاحـــــظ ان الاستعمار الانجليـــزى قد ورث فيماورث عن سابقه هذه المؤامرة السفيهة المتوحشة . . فسلط علينا وباء الكولـــيرا فى أعقاب الحرب حتى لا نجـــد قوة نثور بها فى وجهه . . ورفض رجـــــاء الحكومة المصرية فى منع القيادة البريطانية عن بيع فضـــلات الطعام الملوث بالاوبئة المتبل بالامراض . . وحتى الوقت الـــذى نكتب فيه هذه الكلمات لاتزال بريطانيـــا ترفض حق مصر القانونى فى انشاء محطة رقابة صحية بمنطقة « فايد » كى تتمكن من اشراف صحى كامل على وســـائل المواصلات فى تلك الاراضى المصرية . .!

***

ولم تكن وسيلة الاذلال لدى الاستعمـــــار التركى ـ السوط وحده ـ بل والسلوك أيضا . . فالوالى التـــــركى ذو سلوك خـــاص مع الشعب . . سلوك يمتاز بالصلف والغطرســـــة والتعالى ـ وهو نوع السلوك الذى كان السلطـــان يعامل به الولاة والرعايا . .

فالســـلاطين حـــين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون :

« . . أما بعـــد » فقد تمت ارادتنا السنية الشاهانيـــــة

(١) تاريخ الحركة القومية ـ ج أول ـ عبد الرحمن بك الرافعى

(كــــذا) فاذا أردت اكتساب رحمتنـــــا الملوكانية ، فتعال الى اعتابنا ، واقســـم على طاعتنا ،والاخلاص لنا .. »

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى الى اعتـــابه والقسم بين يديه على الطاعة والاخلاص ..!

وهـــــم اذا خاطبوا الشعب لايوجهون الحـديث اليه لهوان شانه ..

بل يخــــــــاطبونه بواسطة الباشوات قائلين :

«بلغوا عبيد بابنا العالى » ..!

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعـــايا ضربة لازب يعلنون فى قحة انهم «اعتلوا عرش اجدادهـم الامجاد طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » ..!ولم تكن هناك مايربطهم بملك الملوك جل شانه سوى هذا الانتحال .

لقـد راض الاستعمار التركى رعاياه على الذل . وراض ولاته على التزلف ، ويمثل الاخـــير اصـــدق تمثيل خطاب إلخديو توفيق المرفوع منـه الى الصدر الاعظـــم بمناسبة تعيينه مكان والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة«٢١٦»من الجزء الرابع لكتاب الكافى فى تاريخ مصر . وابصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

«وصل ليد النبجيل تلغرافكم السامى الآمر ان فراغ **محسوبكم** والدى المحتـــــرم عن الحكومة المصرية . وتوجيه مقام الخديوية من **محض جليـــــل عواطف** الحضرة الملوكانية لعهدة **رقيقكم** همـــا من مقتضى عالى ارادته السنية السلطانية . وبالحقيقـة ان تكرم حضرة صاحب الخلافة **الاقدس الذات** بتوجيـــه مقام الخديوية لعهـدة هذا **العبد** كان دليلا على وجود **عبدكم** مشمولا بفيض النظر الملوكانى ..

« فلذا رفعت الى مقر اجابةالرب القدير اكف الادعية الخيرية ببقاء عمر ، وعافية ، وارتقاءشـــان ، وشوكة الحضرة السلطانية . عالمـاعلم اليقين انسلامةالخديوية المصريةوسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلانبالثبـــات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية . » !

من هذا الذى يتكلم . . ويكرر كلمة عبـــدكم ورقيقكم مرات عديدة . .؟

أهو فرد عادى من الشعب .؟

انه الخديو يبـذل تواضـــعه بسخاء . . لان السلطان التركى لايقنع بدون هـــذا التواضع من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على ضوء هـــذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته ـ اذا كان هـــذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين «أنتم عبيد احساناتنا » واختياره كلمـــة(عبيد) بالذات . .

انها عمليـــة تعويض لاغير . . وهو فيها معذور . . لقد تواضع كثيرا للذين فوقـــه فلابد أن يتقاضاه من الذين تحته . . من الجماهير والرعايا . .!

و ـ الخداع بالدين . .!

ولم يترك الأتراك وســيلة يستغلون بها الرعايا الاانتضوها واذ كان شـــعبنا متدينا عميق التدين ، فقد استغلوا فيه هذه الفضيلة اسوا استغلال . .

فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع ارضها وأملاكها . جاد عليها بكثير من المســاجد والكنائس التى بناها . .! وفى الوقت الذى وقــع فيه فرمانا يجعله «المالك الحر لجميع أرض مصر » . .

وقع فرمانا آخرهذا نصه :«لاتخرج امراة قط الى الاسواق والشوارع ولومتنقبة الاالعجائز .. ومن خالفت تضرب، وتربط من شعرها فى ذيل حمار ويطاف بها فى القاهرة » ! !

وفرمانا ثالثا : « نطلب من الناس جميعا أن يسيروا بمقتضى الشريعة ـ ويعملوا بموجب السنة » !

يا سبحان الله ! !

نهب واقطاع .. ثم دعوة الى القرآن والسنة ..!

عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد ..!

هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك أحد . ان خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد

فحين ولى «نيرون» الامبراطورية الرومانية ، قدمت اليه اوراق محكوم عليه بالاعدام لتوقيعها ، فبكى .. بكى نيرون وصرخ : ليتنى ما تعلمت الكتابة ..!

ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية .. رواية حياته الآثمة ، سفك دم أمه بيمينه.. واحرق روما وهو يقهقه امام مشهد صاخب من مشاهد الجحيم .!

ان الحكام الأتراك لكذلك .. يؤمنون اول النهار ، ويكفرون آخره .. ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة التدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله، ويسومونه سوء العذاب ..

والشعوب حين تبتلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبدالسلام يقرع الجرس ويبيع امراء المماليك بالمزاد .. فان عاقبة امرها تكون خسرا . . وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر وللعرب.

الم تر مرة أو مرات..رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهكما أو مسليا : ادع للسلطان بالنصر ..! ان لهذه الكلمة

الذائعة قصة فى تاريخنا القديم الحديث .

فقد دخل امام أحد المساجد ليخطب الجمعة فى عهد بعض السلاطين الأتراك. فوجد المصلين جميعا رقودا يئنون.. فسألهم عن سر هذه الظاهرة الصامتة فأجابوه : ان الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبوب وقوت زاعما انه سيرسلها الى جيش السلطان .

فسألهم الشيخ : اليست جيوش السلطان تحارب الكفار؟

أجابوا فى سذاجة : نعم !

قال الشيخ : اذن ـ ادعوا للسلطان بالنصر .!!

وذهبت مثلا ..

ولقد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر، فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها:

((نصيحة من علماء الاسلام بمصر))

« .. نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية . يحبون المسلمين وملتهم .. وهم أصحاب لمولانا السلطان. قائمون بنصرته، واصدقاء ملازمون لمودته .. يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه.. ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله .. » !

ان استغلال الاستعمار التركى للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا .. بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل .. بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها .

وآية ذلك ما لا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين ـ فليس هذا من الاسلام فى شىء .. ولكنها الخرافة الدينية التى روجها الأتراك .. واصدروا بها فرمانا ومرسوما

وعلينا أن نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذى مر

بنا آنفا .. والذى حرمه على المراة ان تخرج لحاجتها ولو منتقبة .. ومن فعلت تربط بشعرها فى ذيل حمار .!

أهذا هو الاسلام الذى خاطب رسوله النساء قائلا : « ان الله اذن لكن ان تخرجن لحاجتكن» وأباح لهن الخروج حتى بغير نقاب وحجاب .؟

لكن أمة تعيش ثلاثمائة عام فى ظل الجهالة التركية، والتنطع التركى والسيطرة التركية لابد أن تثمر مانعانيه اليوم من رجعية وانحطاط وتعفن .!

***

لقد قال احد الخلفاء الأتراك: «سأصنع بكم كما يصنع قيصر الروس برعاياه » مخاطبا شعبه وشعوب مستعمراته .! فماذا كان يصنع القيصر .؟

هنا سيتبين صدق قولنا ــ ان استغلال الدين كان خطة مرسومة ،ولم يكن مصادفة طارئة
فقد كان القيصر ــ أى قيصر ــ بارعا فى استغلال دين بلاده.
وكان رجال الدين فى الكنائس يصلون بالناس «صلاة القيصر»

أيها القيصر .. -
نحن عبيدك المخلصون ..!
يا ظل المسيح ..!
ويا روح الحق ..!
نعيش لخدمتك ..!
ونطيعك فيما تقول ..!

وهكذا اراد الأتراك ان نعبدهم من دون الله .. وأفهمونا ، وهم يتولون الملك كابرا عن كابر، أو صاغرا عن صاغر .. انهم كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » !

ز ـ الاستعمار التركي ـ والجهل

وهذه الامية التي لاتزال لطخة سـوداء في وجه مصر أثر من امجد آثار الاستعمار التركي ، واحقها بالاشـادة والتنويه ..! فقد عاشت مصر اعوامها الثلاثمائة محرومة من الثقافة والمعرفة.. ودبر الأتراك مؤامرة للاجهـاز على لغة البلاد.. واسموا اللغة العربية «لغة الفلاحين» وكانت اللغـة التركية لسان السـادة والقصور ..

ولا تزال مظـاهر هـذه الاستـهانة بلغة البلاد ماثلة امامنا ـ فعلى بعد خطوات منا، وفي داخـل القصور السـعيدة المترفة ـ يعيش اقوام لايعرفون عن لغتنا القومية شيئا سوى انها الهمهمة التي تتحرك بهـا شفاه الرعايا .. وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضا ..!

ولقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحة يأتلق فيها علمـاء نوابغ كابن اياس وابن خلـكان والمقريزي وابن حجر وابن العميد والذهبي والدميري وابن نباته وصاحب «صبح الاعشى» وسواهم

كذلك كانت مهاجر الاحـرار المفكرين حين يمسهم في بلادهم نصب واضطهاد . فقد هاجر اليها ابن خـلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون .

فلما جن ليل الأتراك، وكان ليلا بهيما ، ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين في حمى حلفائه واصدقائه الأتراك ..

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشيعا للجهل ..؟

هنا نلتقي بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا .. حيث تضيء لنا الطريق، نظريته التي يرد بها جميع الظواهر والاشياء الى اسباب مادية واقتصادية.

فلقد كان للمدارس اوقاف كثيرة يانعـة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنـا هذا الطول العريض .. وماأسرع

ما تتحـقق لهم الامنيـات .. فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التى كان الفاطميون قد خلفوها ـ وجاوز جشعهم واستكلابهم كل حد .. فاقتلعوا ابواب المدارس، وأخشاب النوافذ والسقوف ثم باعوها .!

يقول على باشـا مبارك فى «الخطط التوفيقية» «..أهمل أمر المدارس .. وامتـدت يد الأطماع الى أوقافها، واحتجزت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعا وانقطع التدريس فيها، وبيعت كتبها، وانتهبت. فخربت وصارت زرائب ..» !

لماذا ننبش القبور ..؟

هل تظن ، وانت تقرأ هذه السطور .. وتستعرض بعض مشاهد الماضى ، انك امام عرض تاريخى .. أو حديث نزجى به الفراغ ، ونملأ به الصفحات .؟ لا ـ انت امام غرض أجل ، وغاية اسمى ..

ونحن ننبش قبر الاستعمار التركى حقا لنكتشـف الاوتاد المطمورة تحت ترابه والتى لاتزال تصلنا بها سلاسل واغلال .. ان نشوء الجريمـــة يلقى ضوءا ناصعا على اطوار نمائها، وعوامل تشبثها بالبقاء ..

ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسى، والاستغلال الاقتصادى ، والأقطاع المتفشى، والرجعية المنحدرة ..

وتحتل نفوسنا عقـد غليظة تحملنـا على الخنوع والعجـز والاضطراب ..

ويجثم فوق ظهـورنا ماض موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعتاقنا عن التقدم ..

فليس لنا بد من تطهير آبارنا

ان علماء الاجتماع يقررون أن «روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها »

والأمة .. ما هي ؟

انها ليست جيلا يقيم على ارضها ثم يزاورويختفي ـ بل هي تياربشري متساوق الموجات، يجري لا مستقر له .. وكل موجة فيه دافعة مدفوعة .. مؤثرة متاثرة ـ معطية آخذة .. وهي في نقل تطورها تاخذ من ماضيها وتصب في حاضرها ـ وتتدفق نحو مستقبلها .

وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضي فسنظل دائما نعيش في ذلك الماضي برجعيته وفساده واستبداده .. وسيظل الشعب جاثيا تحت الاثقال التي انقضت ظهره ، وهدمت قواه

لابد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الاخفاق والفشل .. تسويه وتنفخ فيه ضرورات حاضرنا ، وتبعات مستقبلنا ..

واذا لم نصنع ، فسنظل امتدادا لظلمات الحكم التركي . ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها اخطاء وأعباء ماضيها .. وقطيعا أبله ، يضطرب في المرعى القاحل ويدور .. يرى هشة العصا فيتراكض .. ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهارش .. والراعي هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة .. وهو يقلب بيديه البضتين شرائح الشواء على المدفاة .. حتى اذا غص بطنه الكريم .. القى على القطيع نظرة فاحصة .. واستل سكينه المخضب ، وخاض بين قطيعه المطيع .. يتخير منه ذبيحا آخر .. لوجبة اخرى ..

فلنغادر الماضي . .

وان هذا العرض «السيكولوجي» للحقبة التي قضيناها في قبضة الاستعمار التركي لتكشف عن المأساة .. المأساة التي تتمثل في اننا ـ الدولة والشعب ـ لا نزال نعيش في ذلك الماضي السحيق .. وان كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن .. بل كل مايربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور والاعوام ..

فنحن نؤرخ وجودنا الآن بعام «١٩٥١» بيد اننا نعيش فى عام « ١٥١٧ » حيث بدأ الاحتلال التركى ، وفيما تلاه من أعوام وقرون ..

فالعجز السياسى .. والرجعية الاقتصادية .. والانهيار الخلقى والشعب المستسلم .. والحكم الأتقراطى .. والفساد الادارى .. والحريات المصادرة . واستغلال الدين .. كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها فى تلك القرون ..

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة اننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى .. صحيح أن اشخاصه اختفت وطواها التراب .. ولكن أخلاقه وشعائره لايزال الان يثمران كل ما اثمراه بالأمس من فساد

فأول أغلالنا التى تصفدنا ـ هذا الماضى .. فلنغادره ، ولنصنع لنا حاضرا جديدا حرا باسلا

وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التى نقترح اقامتها لنعبر عليها .. مغدرين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطر حياة تستحق أن تسمى حياة

والآن ـ فالى ثانى أغلالنا .

٢ ـ الاستعمار البريطانى

ان الفساد التركى الذى أوجزناه فى السطور السالفة .. كان القنطرة التى عبر عليها الينا الاستعمار الانجليزى

وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الاوحد فى بقاء الاستعمار الانجليزى ..

فالاثنان مرتبطان نشوءا ، وتطورا ، وبقاء . .

وهذه حقيقة يجب ان تملأ منا البصائر والاذهان

عند ما بدأت الامبراطورية الباغية ـ التركية ـ تترنح تحت وطأة الترف الذى بددها ـ والفتن التى مزقتها .. كانت

طبائع الاشياء تهيب بسيد جديد كى يتقدم ليستولى علينا . .
وكان هذا السيد هناك . . وراء الحوادث ، واقفا يترقب . .

لم يكن نابليون . . فقد ذهبت محاولته فى نفس الطريق الذى ذهبت فيه محاولة لويس التاسع فى القرن الثالث عسر . . وكان هذا الناهب الجديد ، بريطانيا

لماذا دخلت بلادنا . . ؟

لقد أعلن الجنرال «هنسنسون» بلسان حكومته ان القوات البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالى . . اذن فالاتراك هم الذين أدخلوهم ديارنا بعد ان قبلوا حماية الانجليز لهم من الفرنسيين اولا . . ثم من الشعب ثانيا . . وأعلن الانجليز انهم مسئولون عن حماية الباب العالى ومنافعه ونفوذه .

وقبل ان يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقيعة غائرة بين الاتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المماليك . . ثم أوعزوا الى «محمد الألفى» أن يذهب الى لندن ليطلب معونة الانجليز وحمايتهم . . !

وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى مصر منطقة نفوذ لها . .

فقد تكررت فى المؤامرة التى أوقعوا فى حبائلها توفيق وعرابى
وذهبوا يمثلون نفس الدور مع احمد عرابى موعزين اليه
أن يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقا

فيحدثنا شاهد عيان هو «شاروبيم بك» فى الجزء الرابع من كتاب «الكافى»

« . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من احمد عرابى أمام قصر عابدين فى يومه المشهور وقال له : ان كنت تخشى شيئا فانا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم ، وجميع ما لكم من الرتب والقاب الشرف . . » !

أرائنا ..؟ انها نفس اللعبة القذرة التي دخلوابها.. وعليها الآن يتكئون ويرتكزون ..

ولقد أجاب عرابي جوابا جديرا بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ،كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وانت نفسك غريب تعيش في حفظنا وحمايتنا ؟!» وأراد عرابي أن يبالغ في احراجه واذلاله .. فقال :

« وكيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ، اسماعيل صديق باشا .. ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التي شربها قهرا ..؟! »

ان عرابي يومذاك كان يمثل كل الوراثات النبيلة والاصيلة التي نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل

وماذا عليه لو دخل في حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع الآخرون .. ؟ ـ ان وطنيته الاصيلة ترفض هذا الهوان .

الكلمة الثانية ..!

وسعر الانجليز الفتنة وأججوها .. وتقدم ممثلهم في مصر من عرابي وسأله :

ـ ماذا تفعل اذا لم تجب مطالبك .. ؟

أجاب ـ أقول كلمة ثانية ـ

ـ وماهي هذه الكلمة ؟

أجاب ـ أقولها عند القنوط .

وعمل الانجليز على أن يقنط أحمد عرابي فحرضوا عليه الخديو وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والاشلاء

ثم كان منشور الخديو والخليفة التركي يتلى ويذاع مبشرا بعصيان عرابي ومن معه ..

ثم توالت المشاهد تترى في تناقض عنيف ..

فالخديو توفيق يعود الى عابدين من الاسكندرية .. وان موكبه ليتهادى بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية .. وفى نفس الوقت يدفع أحمد عرابى بأعقاب البنادق الى غرفة مظلمة فى قشلاق قصر النيل ..!

والخديو توفيق يشرف الوليمة الكبرى التى دعا اليها القوات البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلم البريطاني الذى يخفق خفقات التحدى والازدراء .. حتى اذا فرغوا من الطعام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ليقلد نيشان « النجمة المصرية » كل جندى انجليزى شهد موقعتي كفر الدوار والتل الكبير ..!

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابى هناك .. يستمع الى عريضة الاتهام :

« يا أحمد عرابى ـ لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى » !

ومشهد آخر ...

فعلى جدران البيوت والشوارع الصق هذا المنشور الكريم ـ

« ارادة سنية لكافة اهالى وسكان مصر »

« لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى ماليا وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس ، فقد أخذت على عهدتها التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السنية ، والامتيازات المصرية ...

« ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والباطن ليست الا الاصلاح .. قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى

بالتحول نحو جموع العصاة ،واستعمال الوسائل القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رءوسهم ..

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة .. وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » !؟

ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشي بمجلس الامن صارخا في وجه ممثل بريطانيا

ـ اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون ..

فينهض رجل عملاق فى برود وثبات وسخرية .. وأشار بيده كالسهم ... كأنه يومىء الى تاريخ غير بعيد وقال :

ـ أيها السيد .. اننا لم نتطفل على بلادكم .. ولكننا دعينا فأجبنا الدعاء ..!

وأغلق النقراشي فمه ... ودارت برأسه الكلمات .. وصرخ فى أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شىء ، وأفاق ..!

لو سارت الامور كما يريد عرابى وتوفيق .. أكان سيحدث هذا الذى حدث ..؟

لا نظن .. ولكن الانجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا فى دخانها المتكاثف داخل بلادنا

وقد كان .. وهذا درس بليغ فلنذكره حتى نعود إليه بعد حين.

الانجليز وجيشنا !

قرر الانجليز أن يكون استعمارهم قفصا كبيرا يسجن فيه طموحنا وآمالنا .. فرسموا من أول الامر سياسة اضعاف الجيش ـ حتى نظل هوانا يسام ـ لا قوة تسيم ..

ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة

الى مصر ، محـــــاولته النهوض بالجيش ، واربائه الى ثمانية عشر الفا ..

ولذلك أيضا رأينـاهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على عرابى - واختصروه فى لـــواء صغير جميع ضباطه من الانجليز ومحوا العلـــوم الحربيـــة والعسكرية كلها من المدرســـة الحربية التى كانت تخرج لنـــا الضباط ..

وهم الذين تعهدوا فى معاهدة ســنة ١٩٣٦ بتسليح الجيش وقبل أن يجف مداد المعـاهدة -ويتلاشى من الافق صدى طلقات المدافع الفرحة .. وردوا لنـــا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيـــد العصافير ..!

وهم الذين عنروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة فاقترضوهـــا ... ثم أبوا أن يعيـــدوها حتى اليوم .. وهم الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا .. ثم امتنعوا عن بيعنا أسـلحة قبضوا فعـلا أثمانها ..! وهم الذين فزعتهـم محـــــاولاتنا الاخيرة ، فجاءوا باسرائيل لتحاربنا ونحاربهـــا ، وفى قلب الملحمـــة تخلـوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجـــاملة لاسرائيل كما نتوهم فى سذاجة وغباء ... بل لغرض آخر ، هو تعريض جيشـــنا لهزيمة ماحقة تذل كبرياءه ، وتزلزل ثقة الامة فيه ، وثقته بنفسه ..

ونحـن على يقـين ، أن تلك السرقات والآثـام التى اندملت عليها حملة فلســـطين - كانت بتدبيرهم غير المباشر .. واغرائهم غير المرئى .. وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف أحد حتى الجناة أنفسهم .. المحرك الاول لهذه الشـــهوات .. وهى خطة هادفة .. أراد بها الانجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها .. وفى الوقت المعلوم ونحن ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ... كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : هاأنتم هؤلاء ..!

ان سفارة انجليـــزية ـ غير رسمية ـ سفارة مجهولة تعمــل في بلادنا عمل الجبارين لتصيبنا بشر ما يمزقنا • وهم في هــدم الجيش يصدرون عن ســـياسة تقليدية لهم أوصـــــاهم بهــا (غلادستون) يوم قال : حذار أن تسلحوا الجيش المصرى ••!

الانجليز •• ووحدتنا •!

والانجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا بقاءهم •• ثم حملـوا الالفى على الاستنجاد بهم ـ ليكون بقاؤهم مشروعا من الجانبين ـ جـــانب السلطان وجانب المماليك •

والذين فرقوا بين توفيـــق وعرابى ليعودوا بجيوشـــــهم ويحتلوا البلاد احتلالا عســكريا مدبرا •••

هؤلاء هم الذين أغروا ســعدا بعدلى ، وعدليا بسعد •• وأقاموا سياستهم على بث الحقد وتعميقه فى نفوس بعض الزعماء على بعض .. وبعض الجماعات على بعض

ليس الخـــلاف فى الرأى هو هدف الانجليز ـ فالخـلاف فى الرأى لايضير .. ولكنه الحقد والخصومة واللدد ..

وسنظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ •• وهم حين يعجزون عن النفاذ الى وحدة الامة باحدى وسائلهم الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكترثين

ان نبيهم « دزرائيلى » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لابأس بالغـــدر والكـذب والوقيعة ، اذا كانت هى الطريق !

الانجليز •• وحريتنا •!

ولقــد اضطهدونا اضطهادا موصولا ـ ولايزالون ـ وساموا حرية الشعب ســوء العذاب ، واصطنعوا لانفسهم حثيات من الذين تجرى فى عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير وأحاطونا بحصار قاس ظلوم ـ فـلا نتصـــــل الا بالدولة التى

يختارونها ٠٠ ولا نصادق الا من يصادقون، ولانعادي الامن يعادون.

حتى حرية البيع والشراء ٠٠ حرموها علينا ٠٠ ولقد اشتروا قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد ـ وباعوه على بعد خطوات منا بخمسين ٠٠٠ في السودان !

بل حتى حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف ٠٠ سلبوها منا ٠٠ ففي وزارة محمد محمود باشا الاخيرة ـ هم بالغاء البغاء فمنعه الانجليز قائلين :

ـ وأين يقضي جنودنا وطرهم ؟

أي أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها ـ أن تقدم للغزاة نساءها بنفس السماحة التي تقدم بها غذاءها وكساءها ٠٠!

وقد يتكلف الانجليز اليوم التسامح والحلم ٠٠ لاننا صامتون ٠٠ ولكن هذه الاردية الكاذبة تنضيها عنهم المقاومة حين تكون.. ففي ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة الا اقترفوها قتلوا ٠٠ وصلموا الآذان ٠٠ وسملوا العيون ٠٠٠ وهتكوا الاعراض في عربدة معدومة النظير .!

وكل الذي نعانيه اليوم من قهر واختناق ، بقية من القوانين التي وضعوها ٠٠ والتي أوحوا بها ٠٠ لتكبيل حرية القول وحرية العمل ٠٠

ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطاني يقف وراء كل اجراء شاذ تصادر به حريات الشعب وتسفه به رغباته ٠٠ وحين نتحدث عن واجبنا ازاء هذا الاستعمار في الفصل الاخير ستزداد هذه الحقيقة تألقا ونصوعا

٣ ـ البرلمان البرجوازي

ان الاستعمار البريطاني ذكي ٠٠ وهو ، وقد ورث مخلفات سلفه البغيض ـ الاستعمار التركي ـ حاول أن يصوغ هذه

الاســـاليب القديمة في أخرى مستحدثة •• وأن يسكب الفساد القديم والبغى القديم والمكر القديم فى قوارير جديدة ثم يقـــدمها لرعاياه شرابا سائغا ••

واذا كانت الشهوات ـ كمـا يقول أندريه موروا ـ فى حـاجة الى أجساد تتقمصها كى تعمل •• فان الاستعمار البريطانى لم يقنع بتقمص الاجساد •• بل تقمص النظم والقوانين كذلك ••

فقد عاوننا على أن تكون لنـا حياة نيابية ، ولكنه وقد شـهد ميلادها ـ بل وساهم فى خلقها •• صاغها كما يريد ـ لا كمـا تريد ضروراتنا وطموحنا ••

فالحياة النيابية الانتهازية •• والبرلمـــان الاقطـــاعى يوما ، والبرجوازى يوما آخر ••• هو الغل الثالث الذى يقيد حياتنـا ويعتاق نمونا ••

ونحن لانعنى برلمـانا بعينه ،ولا هيئة نيابية بذاتها •• نحن نعنى روح هـذا النظـــام التى تتقاصر دون حاجات الشعب ولا تسعفه بما يريد •

فالاثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه الجوع والحرمان ••

ولكى نخلص من اثبات هـذه الحقيقـة أولا ـ ونثبت أن الذين يتحدثون من زمن بعيد باســم الفقراء ـ ليسوا •• بل لم يكونوا ساعة واحدة من أعمارهم فقراء ـ نطالع أسماء أعضاء أول مجلس نيـابى ـ ثم ماتلاه من مجـالس وهيئات ••

ان أول مجلـس كان مجلس شورى النواب الذى تألف عام ١٨٦٦ •• وكان ندوة للطبقـة البرجوازية الرفيعة فى البـلاد •• كان جميع الاعضاء من العمد •• وكان العمد يومذاك يمثلون الصف الثانى ـ أما الصف الاول فالاقطاعيـون الكبـــار •• وأما الثالث فالشعب البائس المحروم

فمديرية الغربية نجد ممثليهافى المجلس من طـراز اتربى بك أبو العز

على كامل ـ عمدة القصرية

الحاج شنتا يوسف ـ عمدة أبى مندور

الحاج محمدحمودة ـ عمدةبرماالخ ...

ومن مديرية المنوفية نجد : ـ

الحـاج على الجزار ـ عمـدةشبين الكوم

محمد افندى شعير ـ عمـدةكفر عشما

على أبو عمارة ـ عمدة مليج

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب ـ عمدة القرين

محمد افندى عفيفى ـ عمدةالزوامل

عبدالله عياد ـ عمدة كفرعياد

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالى ـ عمدةبنى رزاح

يوسف محمـد عمر ـ عمدةالشيخ تمى

عبدالعال موسى ـ عمدة دروة

وهكذا عن بقية المديريات .. كلهم عمد واعيان ..! (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سـنة ١٩٢٤ وكان أول هيئة نيابية دستورية ـ وجـدنا الباشوات* والاعيان ايضا .

فاذا سرنا على الدرب الفينا نسـخا متعددة لطبعة واحـدة أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

---

(١) عصر اسماعيل ـ عبد الرحمن الرافعى بك

فتــارة نلتقى مثــلا بأصحاب السعادة :

احمد ذو الفقار باشا

احمد زكى ابو السعود باشا

احمد على باشا

اسماعيل سرى باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بــ : ـ

حسين شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدراوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بداءة الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والاعيان . فاذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة . .

وامامى الآن اسماء خمسة من اعضاء مجلس الشيوخ لهيئــــة

قيراطا فدانا

برلمانية حديثة ـ خمسة فقط يملكون ـ ١٧ ٦٥٠٠٠

ونحن طبعــا ، لا نفكر حــين نعرض هذه الظاهرة فى التنديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وانما نتساءل فى ضوء هذا الواقع

هل يمكن لهذه المنظمات النيابية ان تمثل شعبا تسعة اعشاره من الحفاة العراة ؟

هل يمكن ان يوافيها الاحساس الصادق بآلام الجماهير الكادحة ؟

هل يمكن أن تسعى لحـــريةالشعب وحقوقه كاملة .. وهى تعلم ان كل حظ من الحرية يناله ينقص من حريةالاعلين، وكل حق يأخذه ، يصيب ثراءهم العريض بالنحول ..؟

ان البرلمان البرجوازى ليس أكثر من تضــامن الاعضــاء مع الحزب الحــاكم لتبــادل المنافع والمآرب ..

والحياة النيابية لا تكون حياة.. قوية نابضـــة ، الا اذا كانت معبرة عن جميـــع خصـــائص الشعب .

وانا لنجد من الوقائع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بأن هذا التخبط الذى أصبنا به فى الحقبة الاخيرة من حياتنا انما سببه الاكيد سوء تمثيل الحياة النيابية للشعب .

وحسبنا أن نسأل :ـ

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر فى عهد اسماعيل برلمان قوى يمثل الشعب ، لا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والاطيان ؟

وخير جــواب على هــذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوى المصالح والاطيان .. ؟

حدث ان اقترض اسماعيل :

١ ـ عام ١٨٦٤ ـ ٢٠٠ر٧٠٤ر٥ من الجنيهــات بحجــة مقاومــة الطاعون البقرى ـ ثم ترك الطاعون يعيث فى البلاد والعباد ..

٢ ـ واقترض عام ١٨٦٥ ـ ٣٠٠ر٣٨٧ر٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر «ميركون» على ضفاف البسفور .

واقـــترض عـــام ١٨٦٦ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ليشترى بها أملاك الاميرين مصطفى فاضل ، ومحمد عبــد الحليم كى يتخلص من منافستهما له

واقترض عام ١٨٧٠ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ دفعهــا رشـــوة

للاستانة كى يظفر بلقب «خديو» وسافر ببقيتها الى باريس .

واقـــترض عـــام ١٧٧٠ ـ ٨٦٠ر١٤٢ر٧ لينشىء بها مصانع السكر الخاصة به ، وبمد سـكة حديد زراعيـة تربط اطيـــانه المترامية بعضها ببعض .

واقـــترض عـــام ١٨٧٣ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٢ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة .

وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضـــه ٣٦٠ر٣٥٤ر١٢٦ من الجنيهات ـ (١)

حدثت هذه القروض المفجعة التى اروى بها اسماعيل هواه . وملأ الارض قصورا ـ فشـيد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبـــة ، وقصر حلوان ، وسراى الروضـــــة ، وسراى الاسـماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس التين . وعشرات أخرى سواها

وحدث ان جاع الشعب .. . لتشبع حفنة رديئـة تعـد على أصابع القدمين من بطانة اسماعيل وحاشيته التى يحدثنا عبدالرحمن بك الرافعى فى كتـــابه ـ عصر اســـماعيل ـ أنهـــا كانت من الفرنسيين والايطاليين والانجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا فى بلاط الخديو مرتعا وملاذا ! . .

وحـــدث ان أرهق الشـعب بالضرائب ارهاقا منقطع النظير ، حتى جعل على الاغنام ضريبة ، وعلى الحمير ضريبة . . !

والآن : نعود ، فنسـأل ـ ماذا كانت هيئاتنـــا النيابية ستصنع ، لو أنها تمثل جميــع الشعب . . وآلام الشعب . . ؟

كانت ستكره الحـكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليح جيشنا على أن تتجه فورا الى دول اخرى نوع تلك الدول التى لجأت اليهـا انجلترا وامريكا يوما ما .

***

---

(١) **عصر اسماعيل** ـ الجزء الثانى، عبد الرحمن الرافعى بك

كان سيحـــدث عند مانزل «شاهنشـــاه ايران» عن جميع أطيانه للشعب أن تسبق الحوادث التى قـــــد تستجيش أحقاد الشعب ، فتطلب الى آلهة الاقطاع فى مصر أن يتشبهوا بالرجال .. ويردوا للأمة أرضها .

***

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفـه « ان مكاسب كازينو ايفيان للقمار قد زادت عـــام ١٩٥٠ ٧٠٪ عن الاعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الاغنياء الذين يذهبون الى بحـــيرة ايفيان باحثين عن الاشياء المثيرة » .

ان يصرخ البرلمـــان فى وجه الحكومة ..

من هؤلاء الباشوات .. ؟ وكم من ملايين الجنيهات اخذوا معهم ليشتروا بها لهوا عابثا ..؟

أفنعجز هنـا عن أن نحاسب (باشوات) .. وهناك فى بريطانيا يقف بعض أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة من ان تتحمل نفقات رحلة ملكى انجلترا الى جنوب افريقيـا .. ولم يسكتوا حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص ..؟!

نعم ــ ماذا كان يحدث أيضا لو أن برلمــــانات الشعب هى الشعب ..؟

كان سيحدث ، عنـدما تقدمت الحكومة طالبـة اقرار مشروع قانون يفصـــــل بين الشعب والقصر ..

قانون يجعـــل القصر الملكى «منطقة حرام» ويحرم على الامة أن تتحدث عن مليكها بغير تصريح من وزير ــ أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير وهو موظف .. فى شئـــون القصر واخباره فيجعل بعضها حلالا ــ وبعضها الآخـر حراما ..؟ كان سيحدث أن يصرخ برلمــان الشعب ..

نحن مصر .. ومصر ترفض أن تحاصر أخبار مليكها ، مصر ترفض أى سور يقام بينها وبين عرشها .. مصر ترفض أن تتلقط اخبار الملك من أفواه الاذاعات الاجنبية المغرضة ، والصحف المحرفة..

ان الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما ..و ان اخبار الملك وتصرفاته السامية ليس فيها ما يخجل أو يريب .. حتى نضعها تحت رقابة وزير .. !وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذى لقيه قانون الاشتباه..

***

وكان سيحدث أن يطلب الى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم فى وجه المهربين الذين سربوا اموال الأمة الى سويسرا حتى انخفض سعر الجنيه المصرى بالسوق الحرة بنسبة ٢٥٪ فى الصيف الماضى ..

***

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا، وزجوا بالكثير من ابنائها فى المعتقلات أن يقوم البرلمان نفسه بالثورة ، ويكره الحكومة عليها ولكن أنى يكون ذلك ووراء كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وانمائها .؟

كان سيحدث طوال هذه الاعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة ــ ثم كذب علينا مائة مرة ان يجتمع اعضاء « البرلمان » ــ أى برلمان ــ ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا ان جيوش بريطانيا الرابضة فى القنال ــ جيوش معتدية يجب طردها ــ ويقرروا أيضا انه لاقيمة للحياة النيابية تحت خفق الاعلام البريطانية .. واذن فيغلق البرلمان ، ويخرج أعضاؤه الى الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله الى معركة الحرية والاستقلال

٤ ـ الغرائز الناقمة

والآن ـ الى القيد الرابع ـ وهو الغرائز الحاقدة المتربصة ـ والحقيقة ان غرائزنا مجنى عليها .. وجانية . .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد . . فانقلبت الى قوات شريرة شرسة حين تفزع .. والى مخدر مثبط منيم حين تهجع .!

وقبل الاستطراد في الحديث عنها نسأل : ما الغريزة .؟ يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص ، يقوم به صاحبه في ظروف خاصة ..

أوهى .. ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل أو اعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص ..

ويضربون لنا مثلا ـ الغضب ـ انه استعداد جسمى عقلى موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتحرش به عدو معتد ، أو طاغية أثيم ..

ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الارادة الكامنة وراء كل عمل يأتيه الفرد أو الجماعة..

نعم ـ الغرائز ارادة ، وبقدر ماتكبت غرائز شعب تكبت ارادته، وتطمر حياته ..

ودراسة التاريخ الانسانى تزكى اعتقاد المعتقدين بانها قوة قاهرة .. بالغة أمرها . . لاتنال منها الهزيمة منالا ، وهى حين يختفى نشاطها فى سورة كبت أو ضغط .. فليس هذا دليل انصرامها .. بل تكون آنئذ فى دور تهيؤ للانقضاض والانتقام

انها راسخة رسوخ النوع الانسانى ..

وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ..

ومريدة لا راد لمشيئتها ..

وضرورية البقاء الفرد والنوع معا

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليتها، وتقويمها

انها قوى الالهام والابداع ، ولكننا فى مصر والشرق نسىء بها الظنون ــ شأننا دائما مع كل شىء نجهله أو نتهيبه .. ونمضى نطاردها ونخنقها ــ دون ما ندرى اننا نطارد الحياة ونخنق فينا ارادة الحياة ..!

وقد يحسبنا القارىء مسرفين حين نقول : ان تحرير انفسنا ، وتحرير اوطاننا ، وتحرير عقولنا ــ كل هذا منوط بادىء الامر بتحرير غرائزنا . بيد انه لن يلبث خلال مزاملته هذه السطور أن يفىء الى هذا الراى، ويسرف مع المسرفين ..!

والآن .. لكى نستبين قيمة الغريزة ، واثرها فى الحضارة الانسانية نضرب مثلا غريزة الخوف ..

فلقد انشأنا المدارس ــ خوفا من الجهل ..

ووضعنا الدساتير ــ خوفا من الاستبداد ...

واقمنا الحكومات ــ خوفا من الفوضى ..

وانشأنا المستشفيات، ونبغنا فى علوم الطب ــ خوفا من المرض

واقمنا المصانع والمخترعات ــ خوفا من العوز ..

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل ــ خوفا من الله ..

وخطونا نحو الاشتراكية ــ خوفا من الشيوعية ..؟!

وهكذا افضت بنا غريزة واحدة ــ هى غريزة الخوف الى هرم

باذخ من الثروة المادية والادبية ــ ولكن شعبنا العانى، تعانى غرائزه محنة لاتطاق ــ هى نفس المحنة التى يعانيها الشعب من كبت وحرمان ــ وكثيرا ما يتبادر الى بعض الاذهان أن اطلاق الغرائز معناه العربدة والفجور.

وهذا أثر وهم موروث .. وجهالة مزمنة، فاطلاق الغرائز

يعنى اطلاق القوى الهائلة التى أودعت فينا لتعمل وتثمر ..

وهذا الكتاب يضيق حجمه، وتضيق أغراضه عن حديث مسهب مستفيض فى الغرائز .. وهو يحصر حديثه عنها فى بعضها الذى تتمثل فى كبته مشكلة بلادنا

ونعنى بهذا البعض :

غزيرة الغضب ..

غريزة النفور ..

غريزة الاقتناء ..

غريزة «أنا» .. وتشمل حب الثناء وحب الظهور

نزعة «المشاركة الوجدانية»

فهذه الغرائز، واخواتها عامل أساسى فى طبيعتنا ، وهى تسمو، أو تنحط تبعا للغاية التى تجند لها، والوجه الذى تستخدم فيه

ولكن انحطاطها يكون مؤكدا ومضمونا اذا وكل الى القهر أمر تهذيبها ..

فاذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه أن ينفر مما يكره ، وحرم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه أن يمتلك ويقتنى .. فلماذا يعيش ..؟ ولنبدأ بـ :

١ ـ غريزة الغضب :

ان وظيفتها المحافظة على النفس

ومثيرها ـ وجود العدو ..

والعدو المثير لها فى الجماعات هو ـ الاستعمار، والاستبداد ، والقوانين المعتسفة، والاستعباد الاقتصادى .. اذا وجد شىء من هذه ، أو جميعها فى شعب فذروه يغضب .. ان غضبه هذا صمام الأمان ـ ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة

اطفاء النار بقاذفات اللهب ..! ولسنا بذلك ندعو الى شغب أو فتنة ـ بل الى سكينة وسلام .. وانما دعاة الفتنة والثورة بحق هم أولئك الذين يتحدون طبائع الاشياء ، ويحاربونها بقانون ..! وما أحوج هؤلاء الغلاظ الى درس فى التاريخ ، ليعلموا انه كان وراء كل ثورة كاسحة ، وانقلاب مدمر ، واعصار وبيل ـ ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فاذا هى وقود الثورة وخصب الانقلاب ..!

لقد ساهمت احزابنا جميعا، وحكوماتنا جميعا فى قمع هذه الغريزة لدى الشعب فماذا حدث .؟

حدث أن ترنحت بادىء الامر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم ، فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل.. ثم استيقظت ـ فاذا طاقتها جميعها قد استحالت الى حقد اسود على الذين اضطهدوها.. وهم للأسف مواطنون من ساسة وحكام ..!

ولو تواصت حكوماتنا بغريزة الغضب خيرا لحدث النقيض.. كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة الى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا ـ ثم اذا لم تجد منارهقا ولا اعناتا تتسرب فى مجال نافع ، وتعبر عن نفسها بمقاتلة العجز، ومباراة الطبيعة لاستثمار ارضنا وسمائنا وهوائنا ..

وانه لمن دواعى الاسف والفجيعة ـ أن يقدر الانجليز هذه الغريزة قدرها، ويتوسلوا بحسن التفاعل معها الى بقاء استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه

فحين استجاش حفائظنا حادث دنشواى تركونا نغلى كغلى الحميم ـ حتى اذا أوشك البخار الحبيس على التفجير والانقذاف ـ رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء

وكان ذلك الغطاء ـ كرومر.. فنقلوه من مصر !

ولما وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم

من حادث — ٤ فبراير — يتراكم ويتجمع ويتحفز ، وارتج الاناء بالبخــار المهتاج — خطوا نحوه خطوة .. ورفعوا الغطاء

وكان هذه المرة.. كلين .!

ولكن حكامنا — كبارا وصغارا — لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا يريدون أن يعرفوا اللحظة التي يجب أن يرفع فيها الغطاء .! لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا معها — بمجموعة من القوانين ، وبالارهاب الموصول — فما المخرج من هذه القيود .؟

عندما نتحــدث في الفصـــل القــادم عن الحــرية سنبسط الطــريق لتحرير هذه الغــرائز العاملة المنشئة — أما هنا فنحن فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر وآثار ..

ان حكوماتنا من طراز عجيب

فهي تبطش بنا مع الباطشين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهي تدعنا نهب الســـارقين والناهبين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهي تسلبنا حرياتنا وتقول: ويل لكم ان تغضبوا ..!

هي تسلبنا الحلم.. وتحرم علينا الغضب ..! حتى اصبحنا تعصف بنا الحوادث ، وتذرونا ريح العــذاب ، وتصفعنا قوى الشر بأيديها ، وتركلنا باقدامها.. فنرفع أبصارنا الخاشــعة الذليلة تجاه السماء.. فتبصق السماء عليها .. ثم تردها الى الارض دامعة خجلى ..

أو لا يذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا قارعة.. فيستصرخوا بالشعب.. ويخرجوا له كل يوم نداء وبيانا ، فلا ينظر ، ولا يسمع ، ولا يجيب ، ولا يغني عنهم شيئا .!؟

انهم الملومون .. فهــم الذين أخرســوا فيه صــيحة الغريزة

بقوانين القهر التي ساهموا جميعاً في خلقها .. واحالوا طاقتها الى حقد عليهم ، وعلى كل المعاني التي يمثلونها ، والقوى التي يساندونها ..

لقد نصبت حكومة عراقية مشانق الاعدام لشباب باسل حر غضب من اجل بلاده على الانجليز المستعمرين ـ والانجليز المستعربين ! .. ودقت حكومة اليمن اعناق مواطنين غضبوا من ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير .. واقامت حكومة لبنانية من نفسها خصماً وحكماً .. واهدرت حيوات شباب غضب من الرجعية السياسية التي تريد ان تلف الشعوب في مثل الضباب .. !

ومثل ذلك في سوريا . . وأمثال ذلك في الحجاز . . ثم يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت سادتها ، ورهبوت قادتها ان تغاضب المستعمر وتجالده .. ؟!

ان كل سياسي يكبل غريزة الغضب في أمته بالارهاب والقوانين لخائن اعظم ، وافاك أثيم ..

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئام من الناس . . وقد يبارك هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته . وقد يتفضلون فينعتوننا بالالحاد لاننا ندفع عن الغضب كغريزة .. بينما الدين يستهجنه كاثم وجريمة ..

وعفا الله عنهم ـ سلفاً ـ وانهم لمخطئون ! !

فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك .. بمعنى أن الاسراف في كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردى الذى يثيره التحرش بحق شخصى تمكن حمايته بالتودد والرفق .. ثم هو ايضا يعنى باستهجان الغضب ـ التمادى والتطرف ، وازجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان ..

ولكنه لاينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة

لصيانة حرمات الشعب وحقوق الجماعات

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط .. فاذا انتهكت لله حرمة ، فلا احد اشد منه غضبا ! .. »

ان حرمات الشعب كحرمات الله ــ فحين تنتهك ، وتتسورها الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجبا . .

ولقد غضب الله ذاته فى موقف مشابه ..

فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك . . الهذا جمعتنا ..؟ تقاذف الوحى فى سرعة البرق ، ورجم الصواعق .

« تبت يدا أبى لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله وماكسب .. سيصلى نارا ذات لهب .. »

فاذا قام فى الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ، ويعنته كان جزاؤه تتبيتا واعناتا

غريزة النفور .. !

ومن الغرائز التى حرم الشعب من نشاطها المنشىء ، وانكفأت من طول اضطهادها تعمل ضده ،لا معه ــ غريزة النفور ..

وانا لنسأل :

هل يمكن ان يساق الانسان الى طعام كريه . ؟

هل يمكن ان يقبل مختارا على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه.؟

اننا ندعو الحاكمين ان يجربوا ذلك ، ولو مرة ..

خذوا لقمة عفنة .. اوحشرة دسمة .. وضعوها فى افواهكم وامضغوها ، وتلمظوا بها ،واستحلبوها . . ثم انظروا ما سيحدث ..

سيحدث طبعا تقزز ونفور وغثيان ..

واذا دلف اللعاب الى الجوف بشيء من هذه الطعمة الكريهة فسترفضها الامعاء فى عنف فيحدث تجشؤ وقيء

ان هذا الطعام المقذوف ـ يصور لنا قوة الغريزة بوجه عام ـ وغريزة النفور بوجه خاص . .

ويدل فى معناه العميق ـ على ان النفس البشرية ترفض بمثل الطريقة التى ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل ارادة تكبل حريتها، وكل مستوى معيشى يزرى بآدميتها . .

وان ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغدر ، ونهب ، وتفاهة . .

ولكن شعبنا الاسيف محرم عليه ان ينفر ، ومحرم على غريزة النفور ان تؤدى وظيفتها

مطلوب من الجماهير ان تبسط يدها الى اللقمة العفنة ، او الحشرة الدسمة . . ثم تدسها فى فمها ، وتستحلبها كما تفعل باى شيء حلو لذيذ . . !

اى فارق بين هذا ، وبين اكراهها على الاقبال على نظم لا تريدها ، واوضاع لا ترضاها، واشباح غريبة لا تعرفها ولا تألفها . . ؟

اى فارق بينه ، وبين تجريعها المظالم المريرة المتمثلة فى حكم الفرد ، والاقطاع الفاحش ، والرجعية الراكضة . .

والام نعزو هذا التعفن والبلى والجمود فى حياتنا السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . . ؟

ولكن قبل ذلك . . هل فى حيواتنا هذه تعفن ، وبلى ، وجمود . . ؟

نعم . . واكثر من نعم . . !

نعم . . رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنايات السامقة ،

رغم تلك العربات الفاخرة ،والحفلات الساهرة .. فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد !

انبعث الامةونشورها يتمثلانقبل كل شيء فى تجديد حياتها السياسية ، ونظمها الاقتصادية ،ومسايرتها ركب الحضارة وموكب الايام . .

ولقد رأينا فى بداءة هذاالفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا . . وهى صورة حياننا الماثلة ، مخلوطة ببعض الالوان الزاهية الملتمعة . .

ما ذا طرأ علينا من تغييروتطوير . . ؟

كنا بالامس « عبيد الباب العالى » . .

ونحن اليوم – عبيد الحزبالحاكم . .! اى حزب . .

كنا بالامس نعيش فى بلادنا« ملتزمين » وكان السلطان هو «المالك الحر لجميع ارض مصر» .

ونحن اليوم نعيش ايضا« ملتزمين » وعشرات الاسر والبيوتات هى « المالك الحر لجمع ارض مصر » . . !

كنا بالامس لا نملك نقد الوالىولا معارضته ولا تقويمه . .

ونحن اليوم لانملكنقدالحاكمولا تقويمه .

كنا بالامس ضحايا النهب ،والرشوة ، والاستغلال . .

ونحن اليوم كذلك أيضا

كنا بالامس نجلد بالسياط ،وليس فينا برلمان . .

ونحن اليوم نجلد بالسياط ،وفينا برلمان . . !

كنا بالامس مسلوبى الحرية ،والارادة . .وليس لنا دستور ،

ونحن اليوم مسلوبو الحرية ،والارادة ، والكرامة .. ومعنا دستور . . !

كنا بالامس امة مستعمرة باكراه ..

ونحن اليوم امة مستعمرة بمعاهدة .. !

كنا بالامس أمة تتربص بأعدائها

ونحن اليوم امة تتربص بنفسها .. !

كنا بالامس شعبا تلهبه السياط فيتقاذف الى امام ..

ونحن اليوم شعب تلهبه السياط ، فيتراكض الى وراء .!

كنا بالامس نقبل اقدام سادتنا ونعتذر لانفسنا . بانهم وضعوا فيها قلوبهم ..

ونحن اليوم نقبل اقدامهم .. ونعتذر بانهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالامس امة معزولة عن العالم . لا تعتمد الا على نفسها.

ونحن اليوم امة فى « هيئة الامم » تعتمد على غيرها .. بل على اعدائها .. !

هذه حقائق امرنا .. فى امسنا ويومنا . . اما ماوراء ذلك من زينة وزخرف . فليس اكثر من طلاء اردناه ليستر مقابح الماضى الذى نعيش اليوم فيه ، فازداد نصاعة وبيانا .. !

ونعود نسأل :

الى اى شىء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود .. ؟!

انه فى نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور فى المجتمع ، وتحويل طاقتها الهادفة الى نكوص واضطراب ..

فدور هذه الغريزة فى التطور الانسانى من اهم الادوار واخطرها .. وبها يتأتى التجديد المستمر .. والانشاء والابداع ..

فنفور الانسانية من الدابة . حفزها الى اختراع العربة ، فالقطار ، فالطائرة ..

ونفورها من حياة البادية والكوخ .. دفعها الى انشاء المدينة وتشييد القصور ..

ونفورها من الظلم افضى بها الى العدل ..

ونفورها من الاتوقراطية . .دفعها الى الديموقراطية . .

ونفورها من الاستعمار . . قذفها نحو الحرية . .

ونفورها من الاستغلال . .ادى الى الاشتراكية . .

ونفورها من الانقراض . .حتم عليها المسايرة ..

ونفورها من الحرب . .دفعها لنشدان السلام . .

فلو اننا اطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدى الدور الذى وجدت لادائه ، وعاوناها فى نضالها . لكنا اليوم امة اخرى .

ان الحكم المطلق يعتمد فى عمله لبقائه على اضعاف هذه الغريزة ليموت فى الشعب كل احساس بالمساوىء وتتبدد كل محاولة للنفور او التغيير

فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها ـ يصير مأساة مفردة ، وكارثة متفوقة ..

لانه يقع به الظلم .. فلا ينفر منه الى العدل .. !

وتعضه الفاقة .. فلا يفر منها الى الرغد .. !

وتهوى على ظهره السياط .. فيزداد انحناء لتلقيها ..

وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه .. فلا يقلب كفيه على ما انفق فيها ..

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين . . انهم لا يريدون شيئا آخر سواه ..

فاذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجددا وانبعاثا .. فلننفض عن غريزة النفور وعن اخواتها ـ قيودها الظالمة ، واغلالها الآثمة .

٤ – غريزة انا ..

منذ ثلاث عشرة سنة تقريبا ،كنت استمع مع جمع غفير ، الى محاضرة متوهجة ، كان يلقيها الاستاذ محمد توفيق دياب .. وكان من عباراتها . . كلمات لا تنسى ..

« . . انظروا فيما حولكم من الامم ، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول :انا انجلترا .. والفرنسي يقول : انا فرنسا ، والالماني يقول : انا المانيا . . فمتى نستمع المصرى يقول : انا مصر .. ؟ »

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحداثة السن ..

وظل العقل الباطن امينا عليها حفيظا لها . . حتى وجدتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد او انتظار ..

ونحيت الورق جانبا ، وشرعت اتصور مرة اخرى ذلك المشهد فى قاعة « الليسيه فرانسيه » .وعلى مسرح القاعة ، وقف الرجل كانه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال .. والى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح .. !

ثم عدت الى الساعة التى انا فيها .. وساءلت نفسى :

ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الاعوام ان يقول : أنا مصر ؟

أم هى لاتزال امنية من الامانى والاحلام .. ؟

ان غريزة حب الذات وتوكيدها احدى الغرائز التى وقعت فى أسر الظلمات ـ وحيل بين الشعب وبينها .. كما حيل بينها ، وبين طاقتها ووجهتها ..

انها سليقة من انبل وانفع سلائق الانسانية . . والذين تآمروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد . . بل ومعهما ـ او ربما قبلهما رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ..

ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية . .

فقدمضى هؤلاء واولئك يلقنون الناس ان احتقار النفس وبغضها ونسيانها . . هو الهدى والفلاح !

وقالوا لهم ، فيما قالوه ، ان الله لم يطرد ابليس من الجنة الا من اجل كلمة واحدة قالها هى : انا . . !

وهناك اطنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الافكار الرديئة المدبرة . . وينسى اولئك المربون والمعلمون ان الرسول قال : انا . . انا سيد ولد آدم ولا فخر ، قالهادون ان تنقص من تواضعه شيئا

اننا شعب مستضعف . . لان فيه ضعفا . .

ومستعبد . . لانه يحس العبودية ويركن اليها . . !

وسر ذلك اطفاء احساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الانانية المستنيرة الرشيدة فيه . .

وهذا الموظف البسيط الذى يرتجف امام رئيسه . . يمثله فى نطاق أوسع . . الامة كلها عندماترتجف امام مذلها ومستعمرها !

وتمثله ايضا عندما تتهاوى تحت مواد القوانين الزاجرة الراعبة دون أن تملك ازاءها حولا

وتمثله حين تنماع شخصيتهاوتتلاشى فى كل فكرة تطرق بابها . . وكل دعوة تستثير حماسها . . وكل استعمار يزور ديارها دون ان يكون لها عاصم من ريث واناة . .

وتمثله كذلك حين تتهافت على ارضاء حاكميها ، وتهتف بحياة قاتليها . . !

لقد كان اعجب ما صادفنى وانا اقرأ تاريخ امتى ان سلطانها ــ الحاكم بأمر الله ــ ادعى الالوهية ايام اصابه مس الغرور والجنون وامر باعداد « سجل تشريفات » ليستقبل اسماء المهنئين للحاكم ، والمؤمنين بألوهته البلهاء . .

ولم تغرب شمس اليوم الاول حتى كان دفتر التشريفات قد

غص ، وازدحمت صفحاته بتوقيعات وبصمات سبعة وعشرين الفا من الشعب المبرور .. !

ثم رجعت البصر الى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم .. بل وجدت مائة الف او يزيدون – ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف يستقبلون « كلين » بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزرائنا .. كأنه القمر ليلة البدر .. !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤوس والاعناق .. كل ذلك صبيحة الامسية الظلماء التى اقترف فيها – ببسالة نادرة – جريمته وحصاره . .

لو كان هذا الشعب تعلم من زمان . ان يقول : انا .. وجرت من روحه وعصبه وكيانه مجرى الدم . . لنهض فى اهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صغار .. ويستعصى على كل اغراء واذلال . .

غريزة الاقتناء ..

عند ما كان الاتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة ، وسأله :

– لماذ لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه .. لقد دفعت كثيرا يا سيدى حتى لم يبق لدى ما أدفعه .. وان أرضى لم تغل هذا العام شيئا .. !

وغص الباشا التركى بياء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض من مقعده ، ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

.. وأيضا تقول أرضى ..انها أرض السلطان ، وأنتم عبيده ومواليه ..

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها ، وحل بديلها ، غريزة الحرمان .. أو تقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

ان هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركي الذى قبعنا في ظلماته ثلاثمائة عام .. ثم لا تزال تجوع ، وترغم . فاذا كان السلطان التركي الذى يملك جميـــع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت ... فقد حل مكانه عصـــــــابة من الاقطاعيين تملك البلاد والعباد .

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها ، وثمار كـــدها وكدحها .. أو أن تمتلكها الدولة لحسابها . يكون ذلك وأداً وقتلاً لغريزة من أهم الغرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامها ..

ان فى الفرد غريزة تســـمى « غريزة الاقتناء والتملك » تظهر في دور الطفولة ـ فترانا نجمع اللعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا في أطوار حياتنا جميعا ـ وتختلف حالها الوجدانية لدى النـــاس ، فاذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهـــوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد التى تتيح لصاحبها حيـــاة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الانانية والشره والعدوان .. واذا كانت جشعة مفترسة تمظهـــرت في اقتطاع الارض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والاموال ..

وفى بلادنا هذه ـ يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضـــــد الطبائع الانسانية ، لانها تحرم الامتلاك وتهــــدم بذلك غريزة انسانية عاملة .. يقولون هذا ثم يتحدون هـــذه الغـــــريزة ويضطهدونها ، ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك .. ؟ !

أتراهم اذن شيوعيين .. ؟ !

قد يعارضوننا متسائلين :

ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثيابا ، ويمتلـــــكوا بيـــوتا ، وحيوانات .. ؟

ونجيبهم . نعم ، والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك .. !

ولكننا نريد حقنا فى هـــذه الارض التى سقتها وســـــوتها

سواعد آباء لنـــا كابدوا فيها الهول والشـــقاء ، وكان كل عزائهم انها ستصـــير لاحفادهم مثابة ورزقا ..

لقد سقنا فى كتابنا ـ الاول ـ الاحصاء الرسمى الناطق بأن أكثر من ستة عشر مليونا فى هـــذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم .. !

ولقد كانت خطورة المسألة تتبدى هناك فى المخـــاطر التى يفضى اليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملكون كل شيء ـ ومن يفقدون كل شيء .. !

بيد أنها هنا تتبـــدى أمام بصائرنا أشد تجهما وعبوســـا وفظاعة ..

فهى كما نرى الآن تتصـــل بغرائزنا التى أقامهـــا الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا .. •

انها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام .. وكغريزة الجنس ليس لها علاج ســـوى اللقاء .. انها كذلك .. ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقى قبل الدولة التى سمحت لى بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى فى العمل من أجلها .. فاذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها ـ فانها كأى غريزة أخرى ـ لن تموت ولن تفنى . بل ســتغير اتجاهها ، وتنتقم لنفسها ، فبدلا من أن يتسرب نشاطها فى الابداع والتعمير .. يتفجر فى التقويض والتدمير ... !

هـ ـ المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل فى الأمم والجماعات .. واذا أدرنا أبصارنا فى شعبنا فوجدناه مزقا وأشتاتا . والفيناه خابى الشعور خافت الصيحة ، فلأن حـكوماتنا المتعاقبـــة ، والاستعمار المجهز من ورائها ـ قد أفسدوا عليه أسمى نزعاته وأنفعها ، تلك هى « المشاركة الوجدانية »

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من أجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض .. بل قبل ذلك من اجل تضامنه مع الحكومة، وتضامن حكومته معه فى الالتزامات.. انها حين تستقيم تصير صمام الامان الذى يجنب المجتمع عدوان الدولة ، ويجنب الدولة انتقاض المجتمع .. ويؤلف بينهما ، ويؤاخى بين ما لكل منها من مشاعر وخطط واهداف .. ليتحركا معا صفا واحدا نحو الغايات التى اختاراها وآثرا العمل لها ..

ولا يمكن قط ان تقول امة :اننى بدات المسير الى المجد.. قبل أن يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضام والترابط والمشاركة

ولان الاستعمار لا يريد لنا ان نسير : فقد استغل هذه النزعة وتوسل باضعافها وارهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة

لطالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لانهاضها وترعرعتها حين كان يدعو الى التجمع ، ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول ..

« انما ياكل الذئب من الغنم القاصية .. »

وحين جعل مثل الجماعة المتكاتفة كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر.. وحين أخبر أن ابعد الناس عن قلبه ، وابغضهم اليه هم المفرقون بين الاحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين الزم نفسه يوم كان المسئول عن امته وجماعته ان يكون أول جائع اذا جاع الناس .. وآخر من ياكل .. اذا وجد الناس ..!

وحين رفض ايمان كل رجل يبيت شبعان ، وجاره بجواره طاو بطنه على جوع ..

***

ان المشاركة الوجدانية فى الأمة هى عصبها ، وغددها ، وسبب النماء والقوة فيها ..

يقول ماكدوجل :

« .. انها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التى تحدث عند الانسان عندما يجد انسانا آخر متأثرا ، فتجعله يشعر بنفس شعوره .. كما لو كان قد انتقل هذا الشعور اليه بطريق العدوى . »

ومعنى هذه العبارة فى دلالتها الواسعة .. انها التيار الذى ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها فى خط طول واحد الى حيث يؤدى غرضه على أكمل صورة واتمها . . واذا عجزنا عن الاستنجاد بما فى انسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان .. انه قادر على أن يهدينا سواء السبيل ..!

يقول العالم الالمانى كهلز: (١)

« .. ان قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو اى شمبانزى صغير وتعانقه الواحد، تلو الآخر، بمجرد سماع صرخة واحدة تند عنه .. »

ويقول العالم الامريكى هولمز:

« .. ان جماعة النمل والنحل، وكثيرا من الحشرات يظهر عليها الغضب ، حين يغضب واحد منها لسبب ما .. فتأخذ فى التجمع من غير أن تدرك له سببا .. »

ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول: انه استثار مرة قردا فصرخ، فاذا جماعة القرود تخف اليه وتتجه نحو «هولمز» لتثأر وتنتقم ..

يقول هولمز : « .. حتى ان القردة الوديعة «ديانا» هجمت

---

(١) كتاب علم النفس – ج ١ – للاستاذ الابراشى وزميليه

علي بتوحش ، مع اني كنت قبل ذلك بفترة قصيرة الاعبها، واقدم لها الهدايا .. » ! !

***

اي كارثة ماحقة اصابت امتنا فلم تعد تجد من الأباء والوطنية والمشاركة مثل ما عند القردة الصغيرة ديانا ..؟!

لقد استجابت «ديانا» لواجبها نحو جماعتهـــا فذهبت تعض اليد التي كانت تطعمها وتناغيها .. لانها اعتدت على زميلة لها او زميل ..

وفى بلادنا قــوم لا يطعمهم الاســتعمار .. بل يستــذلهم ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفــون مع الجماعة ضده .. بل العكس، ويتركون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليــا ، وجلائل الأعمال ..!

***

ان الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التى تمتص من هذه النزعة النبيلة طاقتها ..

افلا ترون ..؟

هذا الاستعمار الذى يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا .. ويلطمنا كل يوم لطمة عاتية ..

والذى يتصرف فى بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا .. فيتفق مع امريكا على القواعد الحربية فى بلادنا ..!

والذى يجثم على كاهلنــا ، ويثير الفتن بيننا لتظل له .. الكبرياء والنفوذ فى الارض ..

والا ترون ..؟

هذا الفساد السياسى الذى جعل مصر اشبه ماتكون بصحيفة تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربيــة .. ثم تملأ صفحاتها بحروف تركية ..

أعنى ان سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصرى .. ولكن سلوكها كله ، وانظمتها كلها ، وتقاليدها جميعها لا تزال بقية مما ترك الأتراك المستعمرون.. هذا الاستعمار، وهذا الفساد.!

اين الشعب منهما ..؟ انه يهمهم ، ويغمغم ثم لايزيد .. بل حتى همهمته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشابك انسجام .. !

لماذا ..؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لاتؤدى وظيفتها ولا تستثمر طاقتها طبقا لخطة موضوعة تواصى بها الاستعمار والاستبداد .. فصار عاجزا عن أن يصنع صنيع الشمبانزى حين يضام منها قرد صغير..!

***

هذه هى المطارق التى تتهاوى فوق محاولاتنا ، وتنهال على امكانياتنا :

ا ــ الاستعمار التركى الذى ذهب حكامه ، وبقيت احكامه

ب ــ الاستعمار الانجليزى بنفوذه السياسى ، واحتلاله العسكرى ..

ج ــ البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته لاوعيه ومشيئته ..

د ــ الغرائز الناقمة التى اضناها طول الاضطهاد، فمضت تعمل ضد المجتمع لا معه ..

والخلاص من هذه الاوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون .. بل الطريق اليه سوية ممهدة .. تعتمد على النظام والحب والمثابرة .. وكلها خليقة من الحكومة والشعب بالتقدير والاحترام .

وسندع الآن الاستعمار البريطانى حتى نلتقى به فى الفصل الاخير من الكتاب ..

وسننشد فى فصل جديد ،هو الفصل القـــادم .. اسباب النجاة من الماضى الذى يطاردنا، ومن البرجوازية النيابية المستغلة التى تعتاق نمونا، ومن الحصار المضروب حـــول غرائزنا وقوى الحياة فينا

فالى هنالك

الحرية .. هي الخلاص

« ان الله الذى وهبنا الحياة ...
وهبنا معها الحريه فى نفس اللحظة
ولنفس السبب

جيفرسون

كان من المقدور للانسانية أن تظل شيئا غـــير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضـــاء للكلمة الساحرة الآسرة ـ الحرية ..

فلما وجدت بردها خاضت من أجلها معركة الدهر ـ ولا تزال تخوضها .. بيد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديرة بالتـــدبر والامعان ..

انها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل .. بل يوم بدأ الانسان القديم يحس ، ويسمع ، ويرى .

يوم بدا له ، وهـــو يتسلق الاشجار فرارا من الســـيول ، ويأرز الى الكهوف حـــذرا من الصواعق ، والوحوش . . ان الطبيعة تتحدى حريته : وتناوىء طموحه . ومضى يتلفت عن ايمانه وعن شمائله ؛ فلم يجد له نصيرا سواه . .

وانساب فى روعة رجع صوت بعيد مقبل من الازل :

لقد وهبناك الوجـود ، ولن نمنحك بعده شيئا ؛ فناضـــل لتحيا .. أو استسلم فتموت . !

ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه فى اصرار وعزم .

ترى أى هدف آثر واختار .؟

هو هذا ـ

- تأمين وجوده .
- واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعد ملايين الســـنين نعرف ؛ أو ننشد سوى هـــذا الهدف المزدوج الجليل . ؟

ولكن ضد من ذهب الانسان القديم يؤمن وجوده . ؟

ليس ثمت سفاكون يحذرهم؛ ولا اقطاعيون يتهيبهم ..
نعم ، ولكنه الفى نفسه وجهـا لوجه مع الوحوش المتقحمة تعيث في الارض باحثة عن ذلك النزيل الجديد لتملأ باشلائه امعاءها ..

ومن هنا بدأت قصة البغي والمقاومة .

وهنالك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطها دون أن تترك لها حق الاختيار .

فأما أن تختفى في الجحور والمغارات فتسلم ؛ واما أن تسير على ظهر الارض ، وتمشى في مناكبها فيفترسها كل ظفر وناب ..

● تماما كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم .. فأما ان يتلفعوا بالصمت والتسليم؛ فيسلموا .. واما أن يحترموا آدميتهم ؛ وينشدوا لانفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم القوة ، ويهصرهم النكال ..

***

ماذا صنع الانسان؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه .. هل قبع في ظلامها .. أم خاطر من أجل حريته .. ؟

لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشئة .. وصاح بالوحوش الوقحة صيحة التحدى .. وكان ذلك الاقدام ثمرة ادراكه لقيمة الحرية .

لقد رآها ضرورية لبقائه ، وآثر أن يموت في الافق المتراحب موتة جريئة باسلة .. على أن ينفق فى جحوره نفوقا بطيئا ..

● تماما ــ كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهورة حين تدب فيها شجاعة اليأس ، فتغامر بحياتها مغامرة تفضى بها الى الحياة ..

وكانت خطة الجماعة الانسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة

فدائية ـ ليس مهمتها أن تنتصر بل أن تموت ·· ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمــام الموكب الزاحف الواجف .. وقد كان ·وفي كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاما مرا ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتكون جثثهم جسرا تعبر عليه الجماعة الى هدف جديد ·

وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت الطليعــة ركضــا وا قتحــاما .. وتحــدت الرعــد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الارض التى وقفت عليهــا حتى تسلمها للزاحفين عــلى أعقابها · ·

● تماما كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة · · اذ يمضون أمامها ، ويرســمون لها الطريق بأفكارهم ،وأقلامهم فيصرعهم البغي ـ ولكن دماءهم المراقة تبقى وهجا يرســل على طول الطريق ضوءه وسناه ··

وذاق الانسان طعم الحــرية؛ وأحسها احساسا مثيرا فجرفيه البصيرة والخيال

وكان من أعضـــاء الجماعة الانسانية الاولى من انطبعت فيهم ســـلائق الوحوش من طول ماعاشروها وكابدوها · · فمــا أن استقرت الجماعة فى مدنهــا وقراها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسموق بعد أن أنهت فترة الاختمار · · وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ،

ودالت دولتها ·· فانطلقت هذه القلة المحاكية الباغية تمثل فى جماعتها ـ دور الباس الوحشى المنقرض ، وتقمصت الحيوانيــة المفترسة أجسادهم كى تعمل عن طريقها ·· فشنوا على اخوانهم الغارات ·· واختطفوا النــاس واتخذوهم رقيقا·· ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع · · ثم شادوا الامبراطوريات ؛وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين ··

***

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية

وتطوره ؛ لم يكن لناعنهغني٠٠ليعلم أولئـك الذين يســـومون الشعوب المقهورة اليـوم سـوء العذاب انهم ليسوا سوى امتداد معنوى لوحوش الغـــاب وهـم غرباء عن الانسانية دخلاء عليها ووظيفتهم في هذه الدنيا ـ تعويق التقدم الذى يعتمد على الحرية وانطلاق الكرامة الانسانية مـن وطأة المهانة ٠٠ وفض قيود التبعية والخضوع عن البشر ٠ ٠

ولقد سارت المعركة مع وحوش آدم ٠ ٠ كما كانت تسير من قبل مع وحوش الغاب .

وكان كل ظفر تحققه الجماعة حافزا الى جهاد أشد وأعظم ٠٠ ولكأنما كتب عليهـــا أن تودع الراحة الى الابد ، وألا تضــع العصا عن عاتقهـــا حتى تقضي لنفسها أمرا ٠٠ ترى ماذا كان حظ آبائنا الاقدمين في هــــذا النضال ٠ ؟

لقد كان عجبا ٠ أى عجب ٠ ولكن ليس من طبيعتنا ، كمـا انه ليس من صالحنا أن نتباهي بعمل أهل القبور ٠ وحسبنا فقط أن نذكـــر ، ان بعض مؤرخي التطور الانســـانى يقررون ان أول حركة قامت في الدنيا ضد الاستبداد الســـياسى ، والظلم الاجتمـــاعى كانت فى مصر أيام الفراعين ٠٠ وعن مصر أخــذ العالم القديم الدرس فحذقه ، وأبى أن ينساه ٠ ٠

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك ٠ ٠ صـــــلاة يتلوها فى المعابد ٠

ـ ايتها الآلهة .

ان فرعون يذلنا ٠ ٠ويضربنا

والارض التى يقـــول انكم وهبتموها له ترهقنا ٠ ٠

ـ أيها الآلهة ٠

اعطونا راحة ٠ ٠

واعطونا أرضا ٠٠ !

ان ظهورنا قد انحنت ..

فاقيموها .. !

ولكانما سرت هذه الترنيمة في وجدان الانسانية بصورة لا تزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية .

فلقد وجدنا بعض الشعوب المنتفضة تصلى ابان انتفاضها فتقول :

قفوا - ياعبيد الارض ..

قفوا - ياعبيد الجوع..

سيروا مع البركان ..

البركان الذى سياتى على القديم ، ويمحو الماضى جميعه .

سيروا على الشوك..

سيروا على الجليد ..

وقوفا وقوفا أيها العبيد.

ان عدو لنا أراد الدمارا ولارض نعزها اقفارا

فسنلقاه بالجواب الاشد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق يخطف الابصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته .. فبعد أن كان لا يحقق أغراضه الا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول والاقناع والاناة ..وأصبح يعزف عن الدم - ويبحث عن الزهور. ويتقزز من الموت ويريد السلام

واذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الامم المغلوبة - تريد الحرية وتسعى اليها ..فأتيحوا لها أيها الحاكمون أن تسلك طريق الزهور ، والحب ،

ولكي ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعا ؛ حاكمين ومحكومين ، نحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة في الحرية والعدل ؛ فالخطوة الاولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها

اتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية .. ؟

تصوروا اذن قيمة الانسان. وليس يكفي أن نتصوره تصورا دينيا بمعنى انه خليفة الله في الارض ؛ ومنفذ مشيئته فيها . بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر واقعيا يبرزه في الدور الذي أداه ولا يزال يؤديه في عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف الحضارة المتبدية فيه

هذا الانسان الذي تعلم وعلم ؛ وبنى وشاد ، واخترع وأبدع، وفكر وتفلسف ، وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية فجة غريرة الى رقي عارم ومدنية شامخة ..

هذا الانسان ماكان ليصنع من كل ذلك شيئا ـ لولا الحرية. ويوم كان يجد حريته ـ كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حائا لها .. فاذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده ولاتراه .

ولقد أتى على الفكر الانساني حين من الدهر وضع فيه تحت وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء ، فلم يكن ثمت أدب ولافن ولا اختراع ..

ومثل واحد من مئات المثلات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها.. فحين اخترع المجهر .. « ميكرسكوب » وقف خصوم الفكر والحرية من رجال الدين المسيحي وقالوا :

هذا كفر وهرطقة وسلطوا عدسته على جثمان برغوث .. فرأوه ضخم الجثة ـ ففزعوا ؛ ولعنوا الشيطان الرجيم . .ثم حرموا استعمال المجهر لانه يغير خلق الله ؛ ويضاعف أحجام الاشياء .. !

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حريته، أكان ما نراه اليوم من حضارة غامرة سيكون . ؟

ويوم وقف «ابن رشد» يعلن نظرياته» ويضع« الحقيقة الفلسفية ازاء الحقيقة الدينية » وقف خصوم الحرية والفكر من رجال الدين الاسلامى وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين .. ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام .. !

فلو بقى هذا الضباب جاثما يسد الافق ؛ ويحول بين الناس والحرية أكان طريق المعرفة سيمتد أمامها لاحبا ممهدا يغمره مواكب النهى والمشاعل .. ؟!

ما أروع الآية التى قالها جيفرسون :

« ان الله الذى وهبنا الحياة ـ وهبنا الحرية معها ـ

فى نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب »

فى نفس اللحظة ـ لان الحرية روح الحياة ؛ ولايتأتى أن يكون لها بدونها وجود .

ولنفس السبب ـ لان غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض من وجودها ، ومنفذة مشيئة الازل الكامنة فيها ..

والحرية كذلك .. بل هى الاداة المفردة لكل ذلك ـ وما من تطور مشكور نافع أخذ بيد الاوضاع القديمة للناس فى السياسة والعلم والاجتماع الا كانت الحرية وحدها رائده وحاديه . .

* *

الطمانينة .. أم الحرية ؟

ولكن الحرية مطلب جليل ؛ وهى لاتمنح يدها كل لامس ـ والايدى الناعمة الرخوة حين تمتد اليها لتنالها ؛ ترتد مقبوضة على زراية وهوان .. ولايبلغها سوى الصناديد البواسل ،

القادرين عـلى التوقل والتسوروالطموح ٠ ٠

وقديما قال شاعر عربى ٠

لابد للعاشق من وقفـة ما بين سلوان وبين غرام ٠٠

فلنسأل انفسنا قبل المسير

أنريد الحرية بحق ٠٠ ٠ ؟انها لاتأتى وحدها ٠٠ بل تحف بها حشودمن المخاوفوالاخطار٠

ان مهرها غال لمن يطلبها٠٠انه الكد والتعب ، والمثـابرة وسماحة الافق وتمكن الاخلاصوهما أشق مافيه ٠٠

وهناك فى الوجهة المقـابلةللحرية ـ توجد الطمأنينة ٠٠

طمأنينة الجماد ؛ وسـكينةالقبور ٠ ٠

وبهذا النــوع من الطمأنينةنستطيع أن نعيش هادئين٠٠

لانتألم ؛ لاننا لانحس ٠٠

ولانشكو ، لاننا لانشعر ٠

ولا نقلق ، لاننا لا نطمح ..

ولانخاف ، لاننا لانخيف ٠٠

أفنختار الحرية ، ومعهـاأثقالها ٠ ٠

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعهاأغلالها ٠٠ ؟

لعل من الخير أن نسـتهدىبأولئك الذين اجتـازوا نفس التجربة من قبلنا٠٠

فلنصـغ لرائد كريم هـو« فرانـكلين » يقول :

« ان الذى يفرط فى مبادىءالحرية وجوهرها ليشترى بها قدرا تافها من الطمأنينة الموقتة لايسـتحق الحرية ؛ ولا الطمأنينة » ٠ ٠ !

وهذا حق٠٠ وهو ليس فقطغير مستحق للحرية والطمأنينة بل لن ينالهما أبدا ولن ينالاحداهما ـ لانالطمأنينة المندمغة

هل ذلك الهوان لاتكون جديرة باحترامها ؛ ولا تفيؤها ..

واذا كان شعبنا اليوم قدفقد الحرية ؛ فلأنه باعها بالطمانينة .. ثم اكتشف آخر أمره انه خسر الاثنين معا ـ الحرية والطمانينة .

* *

ألسنا احرارا .. ؟

ولكن كيف نزعم اننا فقدنا الحرية . ؟
هل هذا واقع ، أوهو ادعاء وتطير .. ؟

واذن فعن أى معنى تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور ، وهذا البرلمان ، وهذه الصحافة .. ؟

أليست جميعا مظاهر صدق لما في بلادنا من حرية وسيادة .؟

وقبل أن أجيب ـ نعم ؛ أو لا ـ دعوني أقصص عليكم قصة :

يوم كان « وشنطن » يقود موجا كالجبال من جماهير المقاتلين في حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح في انفعالات صاخبة :

ـ في سبيل ماذا تقاتل ـ ؟

فأجابه وشنطن:

ـ في سبيل الحرية . .

وعاد الجندى يسأل :

ـ وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ .

فأجابه :

ـ هى أن تقف هكذا ـ مرفوع الرأس ؛ بارز الصدر ، وتصيح ملء فمك ـ أنا أمريكا . . وأمريكا بلادى ..

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضربه

الارض بقدمه ، ورفع راسه وصاح :

ـ أنا أمريكا ـ وأمريكا بلادى

ثم استدار الى « وشنطن » وقال له :

ـ ها أنذا قلتها .. ففيم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه الدماء ... ؟!

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك حصون المحاربين ، وتصليهم سعيرا .. ودمدمت أصداء طلقاتها العاوية على سمع الجندى المشدوه فقال له وشنطن :

ـ أتسمع هذه الدمدمة .. ؟

ان المدافع الانجليزية تناديك

كذبت . . كذبت . . كذبت

لست أمريكا .. وليست أمريكا بلادك .!

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحداك تلك المدافع ، ولا تكذبك هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حر وهذه هى الحرية ..!

***

والآن ـ هل أنت مصر ـ ؟ وهل مصر بلادك .. ؟ هل تمثل وطنك فيك كيانا حيا بكل ما فيه من خير ، وبر ، وفرص ، وامكانيات .. ؟

وهل لك من الامر فيه شيء .. ؟ أم أن الامر كله للناهب الظافر ، والمستعمر الدخيل .. ؟ هل أنت مواطن ـ تمشى على أرضها سيدا عزيزا ... ؟ أم أنت تابع يأخذ بخطامك استبداد مطلق واستغلال دنيء .. ؟

هل تستطيع أن تقول : لا .. اذا نيطت بها كرامتك .. ؟ وأن تقول : نعم .. اذا نيطت بها مروءتك .. ؟ هل تقدر أن تقوم فى بلدك اعوجاجا ، أو تنهنه بغيا ، أو تمس القديم العفن

بتغيير وتحوير ..؟ اذا كنته فأنت حر .. واذا لم تكنه ، فأنت شيء آخر .. أنت رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة .. !

***

ان بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع .. وأسباب المعرفة عندنا كثيرة ، وعناصرها محشودة ـ تفتح أعيننا على حقيقة صارخة تؤكد أننا رعايا في « عزبة » .. لا مواطنون في دولة . .

وحسبنا لذلك ـ مأساة الشيوخ ـ ..!

وهي مأساة لاتحمل وزرها الوزارة .. بل السياسة .. ولا الحكومة .. بل روح الحكم ..

فروح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي الانتقام والعبث ...

روح الحكم، ونعني بها السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية سلطة ارهابية تعز وتذل ، وتولي وتعزل ، هذه الروح الماجن بماله من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن منها بد ، ليعلم الذين لايعلمون .. أننا سوائم ، لامواطنون ..!

وهذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج اليقين سوى أن يصدر بها مرسوم ، وتنشر في الوقائع المصرية ..!

وقد لايعنينا أن يظل الشيوخ « المشلوحون » أعضاء أو أن يخرجوا ...

ولكن الشيء الذي أرجف على سكينتنا هو أن يجيء هذا الاجراء عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تساءلوا فيه : عن أموال للشعب ، كيف انتهبت .؟ وأرواح بريئة كيف زهقت ، وبيعت حياتها اليانعة للشيطان!

وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور مايجعلنا نرتد عاجزين عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمات تصان .

لكنه لا يأس ·· فـلا بد من صـنعا ـ وان طال السفر . .
وسنلاقى الحرية وتلاقينا ·· فى مهرجان يضج بأجراس الفوز ،
ويفعم بزهور الانتصار ·

لكن علينا أنفسـنا ··· ان معركة التحرير تبدأ منها ، وفيها

***

تحرير انفسنا من انفسنا ··

قلنا : انه لا جزع عل حريتنا في مستقبلها ، فهى آتية لاريب فيهـا ·· ولا خوف عليهـا من أعدائها ·· بل الخوف عليها منا أنفسنا ··

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ··؟

انه الاسـتبداد ··· وهذا الاستبداد نفسـه أقرب الطرق الموصلة الى الحرية والاستقلال ·!

فكر قليـلا ··· تجد الامر كذلك ·· فنحن كلما استبد بنا الجوع ، الححنا في طلب الطعـام ·· وكلما نفحتنا سبرات البرد الححنا فى طلب الدثار ·· وهكذا كلمـا لفحنـا هجير الظلـم والاستبداد ، اندفعنا فى تزاحم الى ظلال الحرية ، وروضـاتها المونقات ·· ان الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع الظالم .. وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته ·· لان الذين كانوا يسمحون له بالبقاء وتتقاما أمامه محاولاتهم ، يضيقـون به ذرعا وتواتيهم شـجاعة اليأس ، فيخاطروا من أجل الحرية مخاطرة تحطم عنهم الاغلال ···

لقـد وقف « أتاتورك » يوما خطيبا فقال :

ليس على وجـه الارض شيء اسمه الظلم .. فهذا الذى وقع عليه ما نسميه « ظلما » أما ان يرفضه ، أو يتقبله ..

فان رفضه ، فقد منع وجوده.. وان قبله ، وخضع له ، صار لما وقع عليه مستحقا وأهلا .. فلا يكون مظلوما ..!

وهذا كلام جليل صـــادق . وآذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه فلن نعجز عن تصديق «فولتير» وهو يقول :

ـ ما رأيت كالطغيان شـيئاً يسوق الناس الى الحرية سوقا عنيفا ـ !

لا بأس على حريتنا اذن مـن جلاديها .. ولكن الخوف عليها منا وحدنا ..

وقبل أن نطلب الى الآخـرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدا نحن فنحترمها ..

هل يحترم المجتمع لنفسـه حرية نفسه ..؟

ما أثقل عبء الاجابة علينـا ونحن نقول : لا ..

فالحقيقة آننا نحن الشـعب لم تبلغ بعد الدرجة التى نعامل الحرية فيها بأضعف الايمان ..

ولـكن لن ندع الحـاكمين يتوسلون بهذا الى منـع الحرية عن الشعب ، فهـو اذا كان لم يقدرها قدرها ، فلأجل أن حاكميه وقاهريه لم يتيحوا له فرصـة تذوقها ، ومعرفة قيمتها ولزومها ـ ويوم يذوق سيعرف ـ ويوم يعرف سيفديها بمثل ما افتداها به السابقون ..

وكتابنا هذا محاولة لايجـاد تفاهم بين الحرية والشعب .. وبينها وبين الذين اسرفوا على الناس وعلى أنفســهم بالبغى والاستبداد .

ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول : انها اذا لم تكن كبتا وقهرا .. فهى أيضا ليست استهتارا وفوضى ..

ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة باحدى الحدائق العامة ، ومن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهمـا معرفـة ولا الاف ..

وتثاءب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت أطراف انامله ذؤابة أنف جاره . فغضب ونبه المتمطى للياقة المطلوبة .. فأجابه الآخر : انا حر .. !

فقال له صاحبه : نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى حيث تبدأ حرية انفى ..!

وذهبت مثلا بليغا .. فحواه ان حريتك تنتهى حيث تبدأ حريتى . وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين — والآن — لنذكر هذا جيدا ..

ان المواءمة فى تمرس الحرية بين افراد المجتمع بعضهم مع بعض ، وبين المجتمع والدولة هى خير ما يحقق لنا منافعها جميعا ،

فواجب الجماهير اذن حيال الحرية هو :

— أن تؤمن بقيمتها وضرورتها

— وان توائم بين الحقوق المشتركة فيها ..

والطريق الى الاول — أن تفهم انه لا خطر من الحرية على الدين ، ولا على الفضيلة ، ولا على مصالحها .. وان الخطر على هذه جميعا انما يهب من ريح الكبت ، وضيق الافق ، ونضوب التسامح ..

والطريق الى الثانى — أن يمارس كل فرد حريته فعلا ، وفورا ، ودائما — وسوف نخطىء ويبغى بعضنا على بعض ولكننا اخيرا سنتعلم من الخطأ ، ونفيد من التجربة وتصحو فينا فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجانف لعدوان ..

وواجب الحكومة تجاه الحرية ان تكون فى خدمتها ، وان تصوغ قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .

والآن — لنمض معا — مستعرضين الحرية فى أزيائها

المتعـددة ـ مبتدئين بمـا بدأالله به ..

لقد تكلمنا فى الفصل الاول عن « الغرائز » .. هـذه التى خلقها الله لتكون طاقة دافعة ،فاستحالت بفضل الظلم والجهل الى اغلال معقـدة ، وعـوائق مانعة .. والغرائز هى القـوى التى نظم الله حولهـا الحيـاة الانسانية بكافة ضروب نشاطها، بل ناط بها وجهـة الانسـانية نفسها ..

واطلاق سراح الحريـة رهن باطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلاصنا يبدأ منها

وسـنجد الآن أن وراء كـل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحـرية والغريزة ليس من صنعنا ـ بل من صنع الله ـ وهو قمـين أن يوفر علينا كل محاولة سفيهة لقمع الحريات .. لأنها على هذا النحو ليست شيئا هينا يقضى عليه البطش .. بل هى وثيقة الصلات بأعرق واعمـق ما فى الانسانية من قـوة واصرار .وهى الغريزة ..

واذن ـ دعوها فانها مامورة.!

حين نواجه حقيقتنا المنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة ـ نجد شعبا مخفقا .. يدور حول وهم وعجز ـ حتى اذا أدركه التعب خر على الارض ليطويه سـبات عميق .. واعجب ما فى امتنا وجماهيرنا انها على بينـة ممـا تريد أن تفعل .. ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضـت تضرب فى كفاحها ودنيـاها على غير هدى ..!!

ترى ـ ماذا يضللها ، ويخلدبهـا الى الارض ، والحـيرة والاستسلام . .

أهو فقط ظلم الظالمين ..؟

اذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بهـا فرص يرخى فيهـا

المستعبدون الزمام ..؟ وتكتفى بأن تتململ تململا غامضا ، لا ينطلق بها الى هدف واضح ..وتخرج أنفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار .. ثم فجأة تهجع ، وتأرز الى الوتد صابرة، وربما شاكرة ..؟

ان آفة الشعب فى دخيلته ـ فى نفسه الباطنة .. وكل جهد يبذل للاصلاح بعيدا عن نفسه، فهو جهد باطل مضيع .. ان فى اعماق ضميره شيئا يدعوه لمقاومة الحياة .. وفى اقصى نفسه مرارة ويأس ..

وفى وجدانه شعور الريبة بذاته ، وأمكانياته ، ومستقبله وفى عقله الباطن جبن ، وهوس، وانقسام ـ وشخصيته كلها ليست أكثر من اطار يضم هذه المساوىء جميعا ـ ومرد ذلك لا جرم ، اطفاء نور الحياة فينا وتحطيم ارادتها بمصادرة منابعها وردمها ..

فلنطلق غرائزنا هذه .. وهى ستهدى نفسها ، وتهدينا معها الى الحرية والسيادة .

ان الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور أو حكومة .. واذا لم تستقر جذورها فى قلوب المواطنين فلن يكون لها أغصان ولا ظلال ..

فلنبدأ من هنا ـ من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة ـ نفض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها .

ولن نتحدث عنها جميعا ، كما رأيت قبلا ـ وانما نسوق الحديث عن بعضها الذى له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج ..

غريزة الغضب ـ حرية النقد ..

بينا فى الفصل الاول اثر اضطهاد هذه الغريزة فى انطوائها على حقد ، واندمالها على تربص.

والحكومات حين تحاربها ـ فسلاحها القانون .. فقانون يحرم التظاهر ، وآخر يحرم الاضراب وثالث يحرم النقد والكلام ..

والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها كذلك سهلا وميسورا ..

وليست المشكلة في وضعها .. وانما في جدواها .. ان القانون هنا ـ يحارب الطبيعة . . . يحارب الغريزة .. يحارب قانونا آخر . وضعه الخلاق العظيم ، وصقلته القرون .. وهو لذلك مغلوب على أمره ، ولو بعد حين

وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسربا مهذبا مامونا فى المجتمعات والامم بتمكينها من حرية النقد ـ فكبت هذه الحرية فى شعب تحد لقوة أصيلة فيه اصالة الانسانية نفسها ، وتصفية لطاقة تلعب دورا هاما فى بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هاري أمرسون فوزدك » فى كتابه « (١) كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادية مضيئة تكشف لنا عن قيمة الغضب الذي تكمم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف قيوده . فلنستمع اليه :

« .. والنزوع الى الخصام من أعمق الحوافز العاطفية فى الطبيعة الانسانية ـ والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الانسانية وتقدمها ، وتترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة فى مواجهة المصاعب الشخصية ، وفى كل مظاهر الهجوم على المساوىء الاجتماعية المستقرة .

« .. ولكننا اذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفي الذى لا غنى عنه ـ كانت النتيجة مدمرة ، فان البغضاء المزمنة ، أو امساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه ـ والغيظ الشديد قد

---

(١) مجموعة مجلة المختار ـ عام ١٩٤٥ ـ

يورث مرضا كما تفعل الجرثومة .

« .. واذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فان شرما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا ـ هو أن ندع الغيظ يستقر ، والكراهة تزمن .. »

« ـ حين لامت سيدة ـ ابراهام لنكولن ـ على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الاولى بك أن تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والاخلاقية ، ماذا تقولين يا سيدتى ؟ الا ترين انى أقضى عليهم حين اجعلهم أصدقاء لى ؟ »

افلا نستطيع ـ حكومة وشعبا ، أن يكون بعضنا لبعض كابراهام لنكولن مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المتفضة باتخاذها صديقا ..؟

ان السبيل لذلك متمثل فى اطلاق حرية النقد فهى الانفعال السامى لغريزة الغضب ..

وان الجماهير فى بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الايتام فى مادبة اللئام ـ فهى تسرق ، وتضرب وتباع مصالحها ثم يحرم عليها ان تقول لظالميها ، وسارقيها ، هذا حرام ..!!

وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدس ، وهى لاتأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر .؟

ان الدستور يعطى الامة هذا الحق ـ والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق .!

والشعب والحكومة شريكان فى اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده ـ وحين انقد انا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الغلاظ .. وغباء الحكومات وسفهها وسوء استعمال سلطتها .. تلف حول عنقك حبال الاتهام بـ « قلب نظام الحكم »

أفيكون كل نقد لمساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا لنظام الحكم ..؟

الا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا ..

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى افئدة البشر جميعا

وفي مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابي خيانة وقلبا لنظام الحكم . ثم اذا هو اليوم مناط الامل والرجاء ..

وكانت الحركة التي قادها الشيخ الشرقاوي ، والسيد عمر مكرم لتنصيب « محمد علي » مؤسس الاسرة العلوية ، على مصر . كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالي القائم ، وقلبا لنظام الحكم ..

لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل باسم الشعب قائلا :

« .. اني مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بامر الفلاحين .. » واتهمها بالخيانة واتهم الشعب كله ــ الفلاحين ــ بمحاولة قلب نظام الحكم .. !

ولكن الفلاحين .. أصروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة العظمى ، ووقعوا العريضة التي رفعت للباب العالي طالبين فيها تولية « محمد علي باشا »

وهكذا نلاحظ ان كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التي يثمرها الوعي والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم ..!

أيريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا انه لايتم قط تحول نافع الا على أكتاف الخيانة العظمى ..؟

أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الارجاف .. ؟

اننا جميعا على يقين بأن ولاية محمد علي باشا ، كانت في أوانها

انقاذا للبلاد من فساد كبير ..ونهض هـذا الاعتقاد فى قلوب زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه ـ ولكن الحكم القائم يومذاك فسر عملهم المجيد هذا بانه جريمة وانتقاض ..

أفئن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم والقواعد التى تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا لذلك النقد الذى يستهدف البناء والانشاء .. نجابه بنفس الاتهام التقليدى ـ الخيانة ـ وقلب نظام الحكم ..؟!

***

ان الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن النقد وتمنع عنا حقنا فيه ..وهى اذ تسكت أقلامنا ، وتخنق همسنا ـ تغرى بنفسها وببلادها الناقدين الاجانب الذين يكتبون عنا مالو مزج بماء المحيط لتركه آسنا عكرا ...

وعندنا مثل لذلك ـ الكاتب الفرنسى « كوكتو » .. لقد استضيف فى بلادنا ـ وكان من حسن حظ مصر ان يهبط «كوكتو» فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم سمين .. فبسط للضيف موائد الكرم الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم ومشارب .. وهيأ له الكثير الطيب من الليالى الحمراء التى يجاهد فيها المترفون جهادا مبرورا .. !

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر ـ ان يرجو مضيفه كى يمكنه من رؤية «الحلقة المفقودة» فى تاريخ الانسان ـ تلك التى تتمثل فى ملايين الفلاحين والصعاليك المضرجين .. وعلى هذه النثارات الآدمية ركز « كوكتو » عدسته طويلا .. فوعى كل شىء ، وعرف كل شىء .. !

ولما عاد الى بلاده فرنسا .اخرج كتابه المعروف « فى بلاد معلهش » .. !! ولم نر هذا الكتاب طبعا ، فقد صادرته حكومتنا الرشيدة .. صونا لسمعة مصر امام اهل مصر .. !

اما العالم كله فقد قرأه وتلاه . . ومثـــل « كوكتو » آخــرون وآخرون . .

والعجيب ان حكوماتنا خارقةالقدرة فى محاربة النقــد ، فهى لا تخرســـه داخــل حدودهــافحسب ، بل تتعقبـــه خــارج الحدودايضا ـ ولكل بلد وسيلتهاللائقة به . . فعندنا مثلا يحارب النقد بالســجن والتشريد . .وعنــد غيرنا من البــلاد الاخرى تتعقبه بالاغراء والرشــوة . .ولعلنا لم ننس بعدنبأ ذلك الباشا المصرى الذى ذهب فى الصــيفالماضى الى جريدة انجليزيةكبرى؛ وزار المحــرر المختص بشــئونالشرق الاوسط . . والتمس منه ان تســكت الصحيفة عن نقــدالاوضاع الفاســدة فى مصر . . وفى نهاية حديثه قــدم للمحرر« شيكا » بمائة الف جنيه . . !

ونادى المحرر حاجبه وقال له:

اصحب الباشا الى الخارج . . فانه يجهل الطريق . . !

نعم . . انه يجهل الطريق . .ولقــد علمه الفســاد المتفشى فى بلاده ان كل الطرق توصــل الىروما ، وان الذمم تشترى بالمال فى غير مصر من بلاد الله ، ففعــلفعلته وهو من الضالين . .!

وليت الحــــكومات هى التىتحارب وحدها حرية النقد . . بل ان الشعب لكذلك ايضا . . !

فحين تنقد منتقاليده الموروثةوجهالاته المزمنــة ما تعتقد انه ضــار به ، عائق له . . ترتفــعاصوات كثيرة حاملة اليك نفحة هائلة من اللعنات والتمنيات . .!

يجب ان نروض انفسنا علىتقبل النقــد متأســين بالرجل العظيم عمر بن الخطاب الذى كانيقول : رحم الله من اهــدى الى عيوب نفسى .

وان الصـــخرة التى تلقى فىطريق حرية النقد لترتطم بها ـ لهى التقاليد . . .

فتقاليدنا السياسية تصدناعن نقدها ومحاولة اصلاحها ..

وتقاليدنا الاقتصادية تزجرناعن نفس الغاية .. وتقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لاصلاح ديني . . وتقاليدنا الاجتماعية تريد أن تستعصي على التحوير والتطوير .. !

والحقيقة التي تغرب عن بالناهي ان الاديان جميعها لم تأت الا لتهدم على التقاليد ، وتقتلعهاثم تذروها مع الريح ..

ولو كان للتقاليد سلطان وحرمة ما قامت للاسلام نفسه قائمة . فانه لم يحارب بشيء كماحورب بالتقاليد .. لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع انصارها ـ انصار القدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « اناوجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » !

فلحساب من . . تستبدبحرياتنا اليوم طائفة عفنة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين . . ؟ ـ ان الدين كما رأينا يرى في الركون اليها سفها .. بل يراه جريمة يبوء صاحبهابغضب الله وازدرائه .. ففي حديث صحيح يقول الرسول :

« اني ممسك بحجزكم عن النار ـ هلم عن النار ـ هلم عن النار . ولكنكم تقاحمون فيهاتقاحم الفراش او الجنادب ، فأوشك ان ارسل بحجزكم ـ وانا فرطكم على الحوض تردون على معا واشتاتا ، فاعرفكم بسيماكم واسمائكم كما يعرف الرجل الغريبة من الابل في ابله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، واناشد فيكم رب العالمين ، فاقول اى رب . أمتي . فيقول : يامحمد

انك لا تدري ماأحدثوا من بعدك . انهم **كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم** » .. !

فهل الركون الى التقاليد الاتقهقر على الاعقاب ، وتخلف معيب مهلك ـ عن موكب التقدم والحياة .. ؟ !

أم هو لحساب الدنيا اذا لم يكن لحساب الدين .. ؟

لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغيير الثابر والتجدد المستمر ـ ولنضرب لذلك مثلا :

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فاذا بأمواج السيادة الشعبية ترفع الى القمة اناسا لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم ، ولم تكن العين لتقع عليهم فى زحام الحياة . .

فابن الخباز « فنسيان اوريول » يراس جمهورية فرنسا . .

وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين فى روسيا . .

وغاسل اطباق الصيدلية « ترومان » يصير الرجل الاول فى امريكا . .

وسائق القطار « بيفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى . .

وهكذا فى بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة .. ولكل ساعة تقاليدها المستحدثة واوضاعها الملائمة .

غريزة النفور .. حرية المعارضة . . وحرية الارادة

واذا انتقلنا من حرية النقد ـ الى حرية المعارضة وحرية الارادة وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية هى ـ غريزة النفور . وانفعالها المشروع النافع المعارضة، والارادة

فانت حين تنفر من شيء مقيت ينتابك احساس مزدوج بالاعراض عنه .. ثم بارادة تغييره او تحديه ..

ولكن الاعراض موقف سلبى ان صلح فى المواقف الفردية لا يصلح فيما يمس الامة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم ..

ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الكريم .. ؟

« انه سيكون بعدى امراء .من صـــدقهم بكذبهم ، واعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولستمنه ، وليس بوارد على الحوض ومن لم يصـــدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهـــم ، فهو منى ، وانا منه»وهو وارد على الحوض»

وماذا كان يعنى عمر حين دعاالنـــاس ان يقـوموه اذا اعوج ، ويرشدوه اذا انحرف ..

ثم ما كان يعنى ستالين عندماعزل احد اقطاب حكومته وحزبه وكتب فى اسباب العـــزل : « انهيتملقنى دائمـــا ، ولا يعارضنى ابدا » .. !

ليس لهذا كله ســوى دلالةواحدة هى التقدير الواعى الكريم لغريزة النفور ..

انهـــا اذا طمست فى امـــة اوضللت ــ صار امر هـــذه الامة فرطا ــ لذلك رأينا الاسلام يزكىحماسها ويثير انتباهها ، فيقول الرسول :

« لا تمروا بديار الذين ظلمواانفسهم الا وانتم باكون . خشية ان يصيبكم ما اصابهم » .. !

ثم يقول :

« اذا رايتم الظالمولم تأخذواعلى يديه يوشـــك ان يعمكم الله بعذاب » .. !

ان عبارة « ولم تأخذوا علىيديه » هى الانفعـــــال المحتوم لغريزة النفور ــ هى المعارضـــةوالتقويم ..

وحرية المعارضة فى بلادناعملةزائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد كلمة «المعارضة» فى بلاد كانجلتراعنوانا لهيئة سياسية تحترمهـــا الحكومة وتنتفع بذكائها . . اذابهـــا فى مصر عنوان على طائفـــة منبوذة مضطهدة ــ هكذا دائما ــفى كل حكم ، وعهد .. !

ولقد قصصنا عليك من قبل،كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، او خادم ـ لانهم اجتراوا على رفع الستار عن بعض اللمم الجارحة التى شربت فى كئوس النصر والاستهتار دماء الابرياء ،ودموع اليتامى وثكل الايامى ..!

ان المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، واي امتهان لها او تقويض لسلطانها ، امتهان للنظام النيابى جميعه وتقويض له

والامر كما يقول « ج.بيورى »فى كتابه ـ حرية الفكر :

« ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء ، اعظم من اى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والايذاء .. »

ان حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهرا يبعث على الدهشة والعجب ..

فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهدا مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » الى عرشه ـ تقف أمام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة . . حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالموج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد ياليوبولد .. ارجع الى منفاك ياليوبولد » .. !

بل أن أروع من ذلك قد كان . فكتبت جريدة الاهرام يومذاك أن مدينة « ليبج » اعلنت الحداد من أجل عودة الملك ـ ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك ـ وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل «آخر لحظه» عن المأساة فيقول : « عند ما يصبح الملك هدفا لسخط الشعب، يصير على الفور غير صالح لان يكون ملكا . ولقد شعر الملك ليوبولد بانه لا يستطيع الجلوس على العرش الا وهو فى حماية المدافع الرشاشة ..

« وهل تستطيع أن تتصـورملكا يجلس على عرشه فى حماية الحراب .. ! » ـ ثم يتحدث عنالملك الجديد قائلا : ـ « ان الامير بودوان فى مركز لا يحسد عليه ،وهو يفتقر الى المران والخبرة . ونحن نطلب منه ثلاثة اشـيـاءفقط ..

ـ أن يحترممبادىءالدستور.

وان يعيد السلام والكرامة الىشعبنا الجريح ..

وأن يكون ملكا سـعيدا ، فانالملوك السعداء يخلقون شـعوبا سعيدة .. » !

..

اننا نريد ان نظفر فىبلادنابمثلهذه الجراءة فى معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسئولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الارادة فى أن نصـنع حيـاتنا كمـانشـاء نحـن لا كمـا يشـاء الآخرون . والذينلايمكنوننا منحرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلهش » ..

لان العجز حين يرين علىارادةالمستضعفين ، وترعش السنتهم بكلمة الحق يعارضـون بها البغىوالفساد لا يملكون سوى هـذه الكلمة الرثة « معلهش » !

والحـاكم الصـالح النظيفالشجاع هو الذىتزدهرالمعارضة برلمانية وشعبيةفىعهدهوتترعرع. لانه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطرازحين قيل له ، اتق الله فى الناس ياعمر ـ فقال :

ويل لكم أن لم تقولوها ـوويللنا اذا لم نسمعها ..!

وكذلك كان « لنـكولن » حين قال :

« اذا ادرتم أبصاركم فىالوطن، فرأيتم لى فيــه عملا جليـلا . فاذكروا الذين كانوا يخالفوننى فىالرأى ويعارضوننى .. لقدكانوا من ورائى سياطا تلهبنى ، ومنامامى أضواء تنير لى الطريق» ..!

ان نشاط «المشاركة الوجدانية» يترجم فى حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة فى حمل التبعات ـ وتلاقيهما فى الاحساس والشعور ..

والعواطف ـ كما يقولون ـ معدية ، ولا تقف عدواها أمام حجر أو حصار .. فاذا شاعت فى الامة عواطف الثقة والمحبة استقام أمرها .. واذا حطمتها عواطف الشك والمقت ـ طاش سهمها ، وخاب فألها ..

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة هذه الحقيقة . فتوسلت الى تمزيقنا بترييب المواطنين بعضهم فى بعض .. وتشويه سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا .. لماذا صارت الامة أشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعا .. بل لا تحسبها .. وقلوبها شتى .. ؟

لان نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالها طول الارغام الى نزعة تشتيت وتخذيل .. !

ولماذا كان ذلك كذلك ؟

لان المجتمع لم يحاول ان يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها ـ ولو قد فعل لغشيته الثقة ، وآخى بينه التسامح ، وسما به الفكر الطليق الى سماوات من فوقها سماوات ..

لابد اذن ـ أن يقر فى أذهاننا وضمائرنا الاحترام الاكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، ونتخذ من الخلاف الفكرى مزية .. ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ..

فلتفكر أنت كما تشاء ـ ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراما ـ فالفكر وحده هو الذى سيقرر فى حرية كاملة حلها أو حرمتها .. ان للفكر الانسانى

امكانيــات ثره هائلة ، وهو أداةالارادة الكبرى للكشف عما فى كون المادة ، وكون المعرفة من اركازوكنوز ..

والعالم الحديث زاخربالمذاهب والأفكار ، ونحن فى هذا العالم جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعاأو كرها ـ فاذا لم نحطبعقليته وأفــكاره خبرا ، ونســارع الىمسايرته أو مسابقته ـ اذاكانت مسايرته بدعــة وضــلالا . . فسنظل مكاننا ـ لنا أعين لا نبصر بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولناقلوب لا نفقه بها .. حتى يمر بنا المـوكب وهو ماض الى غايتــــه فسنظل مكاننا ـ لنا أعين لانبصر القيط ، ويضعنا تحت الوصايةحتى يروضنا على تقبل الحيــاة والتفاعل معها ..

أليس هــــــذا ـ هــو منطقالاســتعمار حين يعثر على أمــة مغفلة لا تحترم ما أودعه الله فيهامن عقل وقدرات .. ؟ !

ان بلادنا محرومة منان تفكر،لانها محرومة من ان تقــرأ ـ ومحرومة من أن تعبر وتقول ..وهى ممنوعة من ذلك كله حرصا على سلامة الدولة ،وسلامةالهيئةالاجتماعية .. ! !

أصحيح هــــذا ـ أم خـــداعوهراء .. ؟

ان الفكر الحر لا يكون خطــراعلى الدولة والمجتمع أبدا . وانما مصدر الخطورة فكر غير حر .. فكر مكره ، مضطهد ، موتور ..

ان حكوماتنــا تتهيب طبيعــةبعضالافكاروتاثيرها، فتحرمها. وسنفترض اخلاصها فى هــذاالتحريم ، ونظافة بواعثها . ثم ندعوها لتسمع من « ميــل » فىكتابه الحرية نقاشا هادئا بليغا .

« .. هــذه الفكرة المــرادتحريمها صواب ام خطأ ..؟

«ان تك صوابا ثمحظرناها ، فقد حرمنا المجتمعحقه فيها. وسلبنامنهاحدى حقائقهالكبرى

«وان كانت خطأ ، فمن اين لنا معرفة ذلك ..؟

« يجب لــكى نحكم عليهــا بالتصويبأوالتخطئةان نمتحنها

فى جميع الظروف ، وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ، ومناقضتها .. وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب انسانية ان يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة أوخطئها ..»

ان هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون المذاهب والافكار حرصا على دولة ، أومجتمع ، أوفضيلة.. فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصارا مستمدا من صدقها وأحقيتها هى التى يجب أن تنتظم تقاليد الدولة حولها، ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها .. لا أن تحظر وتصادر

لكن ، كيف لا تكون حرية الفكر والراى خطرا على الدولة وهى المسئولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب.؟

وجوابنا — أن هذه — مزية الحرية لا خطيئتها — فكل ما أحدثته من تغير وتطور تم لصالح الانسانية وأفضى لاسعادها ..

وأما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته، فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع .. والذى وقع منها على وجه محظور — كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون غايته — وهى مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها مادامت بعيدة عن الافراط والتفريط يقول «ج. بيورى» (١)

«ان الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما، هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ..، فلو حدث مثلا تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع لتدخل الحكومة.. ولكن الباعث على التحريض ينبغى أن يكون متعمدا ومباشرا ..

«فاذا الفت كتابا ، وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت الى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل فقام وأعلن التمرد ، وارتكب جريمة.. فقد يستنتج من هذا ان كتابى هو الذى جعل

---

(١) حرية الفكر — ترجمة الاستاذ محمد عبد العزيز اسحق

الرجل فوضويا وجانيا — ومع ذلك فلايكون جائزا، ولامشروعا ان اعاقب على التأليف ، او يصادر كتابى مادام لا يحوى تحريضامباشرا على ارتكاب تلك الجريمة بالذات ..

«ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء اعظم من اى شر وقتى مهمايبلغ من الاستطارة

«وان مبدأ حرية الفكر اذا تقرر يوما ما ، باعتباره اقصى مراتب التقدم الاجتماعى .. خرج من مجال الامر العادى الى مجال الامر السامى الجليل الذى نسميه «عدلا» أو بعبارة اخرى ، يصبح حقا يستطيع كل انسان أن يستند اليه — وان قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لايبرر أن تقوم حكومة فى احوال استثنائية ، فتقص من اطرافه بحجة المنفعة نفسها.»

ويعنى «بيورى» بقيام الحرية على مبدأ المنفعة، انها لكى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف ينبغى ان تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الانسان المطردة المتطورة ..

واذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن نعجز الواقع ابدا.. وهذا الواقع يتمثل فى أن للافكار والآراء فى هذا العصر. من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام، مالا يمكن قوة على ظهر الارض من وقفها . فبدلا من أن تنفذ الى أفئدة الناس فى خلسة وظلام .. دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى أناة ووعى لنأخذ منها الطيب ،وننفى عن مجتمعنا الخبيث .

وارتباط حرية الرأى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للثانية بدون الاولى

ونحن لا نطالب بحرية الفكر كمانطالب بحرية الراى .. فانت تستطيع أن تفكر تفكيرا ذهنيا فى أخطر الاشياء ، واشدها خصومة ولددا للقانون ، دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر أحد — حتى انت — على وقف التفكير ورجعه .

لذلك ، فان حرية الفكر تعنى فى الحقيقة حرية الرأى ـ حرية التعبير والقول .

وقمين بنا ان نعلم ان هنـاك تلازما خلقيا طبيعيا بين التفكير والتعبير .. حتى ان بعض علماء النفس ليقولون :

« الانسان يكلم نفسه وهو يفكر .. ولو راقبنا حباله الصوتية ، ونظرنا الى حنجرته أثناء التفكير ، لرأيناها تتحرك ـ وهو دليل على انه يتكلم ولو لم يشعر بذلك .. »

ارايتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط ... ؟

ثم أرايتم ان مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة ، وتحد لارادة الله .. ؟!

ولا يتمثل الرأى فى شىء كما يتمثل فى الصحافة ، فهى التى يتشكل فيها الى حد كبير اسلوب الامة فى التفكير وفى الحياة ... وهى التى تستطيع أن تعبر فى افاضة ، واحاطة ، وقوة عن آلام الشعب وآماله ..

ولما كنا سنتحدث عنها فى الفصل القادم باعتبارها أهم العناصر التى تتألف منها شخصية الامة فسنرجىء الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها

اطلقوا سراح العقل ..

والحديث عن حرية الفكر والراى لا يبلغ مداه حتى يحمل نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته

ان العقل فى بلادنا ، وهو مناط التفكير والفهم ، مشرد محروم .. تطارده الحكومات ، وتطارده أيضا الجماعات ..!

فهو مشبوه سياسى تارة ، ومشبوه دينى تارة أخرى .. ولا يكاد يبزغ من كوى سجنه بزغة خاطفة ، او يومض ومضة بارقة حتى يفزع منه « المحافظون » .. !

وماذا ، بعد أن تظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد .. ؟

ماذا ، بعد أن نظل أمة بلاعقل ... ؟

ان المستعمر الذي يستعمرنا ، والمستبد الذى يحكمنا ، والمستغل الذى يستغلنا ـ كل هؤلاء انما يستعينون علينا بعقولهم .

فاذا شئنا ان نزلزل الارض تحت اقدام المستعمرين ، ونرد الرجعية الاقتصادية على أعقابها لتلتزم مكانها الذى أراده لها التطور والتاريخ ...

واذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحى ، احرارا كما ولدتنا أمهاتنا ـ عاملين ، تتفجر بالادب والفن والانتاج مواهبنا ..

اذا كنا نريد ، فلا سبيل لشىء حتى يعود الغائب ، ويطلق سراح السجين .. العقل !

***

ان الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا فى الظلمات .

والعجيب انها تخوف بالله .. ترى أين يلتمس العقل سكينته وأمنه اذا افتقدهما لدى الله ؟

ان الشعوب التى لا تحترم العقل لن يحترمها احد وستظل أبدا مباءة تعج بالسفه والحماقات ونهبا يتربص بها كل مستعمر وناهب .. !

ويجب أن نعلم ان العقل سيد نفسه ، واذا كان لله خلفاء فى الارض ، فخلفاؤه العقل ..

والانسان الذى يبخس عقله ، وينتزع منه اختصاصه ، لايظل انسانا .. انه كومة هزيلة من اللحم والعظم والاعضاء والامعاء يطلق عليها تجوزا لقب « آدمى » !

وهؤلاء الذين يثيرون العواصف أمام العقل باسم الله جد مفترين !

لقد اختلف الانبياء والمرسلون ، فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج ...

واختلف اصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم ، واختلف ائمة الفقه في أخص خصائص الدين ... واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف ..

وماذلك كله الا احترام للعقل، وتحريض له على المغامرة والتحليق ..

انظروا ـ تروا عمر بن الخطاب لا يخاف من الغاء نصيب المؤلفة قلوبهم ، مع انه مضمون بآية صريحة في القرآن .. !

لماذا .. ؟ لان عمر استعمل عقله ، فاهتدى الى ان هؤلاء المؤلفة قلوبهم لم يعد ثمت ما يدعو للحرص عليهم مالم يأتوا مؤمنين راغبين .

ولو ان عمر ، رجل يعيش في عصر الانحطاط الذي نعيش فيه اليوم ، وصنع هذا الصنيع ، لتزاحمت من حوله الفتاوى بانه كافر زنديق تحركه الجماعات التبشيرية ، وتموله السفارات الاجنبية .. !

ان استعمال العقل واحترامه بداية ما نريد من بعث ونشور ـ ولا باس ان تخطىء عقولنا وتزيغ .. فسنهتدي آخر الامر والخطأ الذي يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذي يجعل الاسلام لصاحبه أجرا ..

ولقد كان الرسول عظيما يوم ضم الى صدره معاذ بن جبل تقديرا لشجاعته الادبية والعقلية حين قال : أجتهد رأيي ، لا آلو .. جوابا على سؤال النبي له :

ـ ماذا تصنع اذا لم تجد الحكم في كتاب الله ، ولا في سنتي ... ؟

وكذلك كان « جون ستيوارت ميل » بليغا وهو يعوى .

« ان الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الاهبة ، وانعام النظر ــ أكثر مما يستفيد من صواب الذين لا يعتقدون الصواب الا من باب التسليم دون أن يكلفوا انفسهم مئونة البحث ، ومشقة التروى »

***

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف ، فليس شيء سواها بقادر على تحريرنا وانقاذنا

ولنذكر ان أعداء الشعب لا يرهبون شيئا مثلما يرهبون العقل الطليق المستنير . لانه الرائد الباسل أمام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

انه ياتى « الرعايا » النائمين ، فيصيح فيهم صيحة الايقاظ .

ــ هبوا ، واستقبلوا موكب الحياة والنور .

وياتى الطغاة المتآمرين ، فيدمدم عليهم بصياحه :

ــ صبحكم .. ومساكم .. !

انى اذا نزلت بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .. !

ومن اجل ذلك يبغضونه ، ويحاربونه ــ وعلينا ان نحرره ليحررنا ــ ونخلصه ليخلصنا .

***

انا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين ، أو القلم ، يسهمون مع الغاصبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه ، وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجرئتهم على بهتبه ورجمه ــ حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلا فى آراء بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن ، والالم ، والكفاح ...

ان هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

اصدقاء جهلاء للشعب ..

او اعداء خبثاء له ..

فليختاروا لانفسهم مايحلو .

أما نحن فنختـــار لهم ، ان يكونوا أصدقاء علماء ... !

ونأسف ايضا لحكوماتنا التي تجبى منا الضرائب لتسخو بها عن طريق المصروفات السرية والعلنية ، على أولئـــك الذين يحاربون العقـــل والوعي بمـا يكتبونه ويذيعونه ..

وحين تدع كتب العشـــاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصادر ، أو تهدددائما بالمصادرة كل كتـــاب يبشر بالواجب ، ويخافت بالواقع المثير ..

واذا كان الخوف عدوا خطرا للعقل ، فالتقليد اشد خطورة وكيدا .. وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .

والامم المنحـــدرة النائمة لا تفيق حتى تومض فى حياتهـــا ساعة تؤمن فيها بأن التقليـــد انتحـار ..

ترى هل دقت هذه الساعة فينا ، وآن لها الاوان .. ؟

ان الجواب ــ مع الاسف ــ لا .

فنحن أمة تتلقط دائما من غيرها ــ دون أن يكون لها ابداع وابتـــكار

وهذا كلام يضل فيه الفهـم اذا لم يكن بصيرا ، فقـــد يظن البعض ان استهجاننا للتقليـد يعنى كل محاكاة نافعـة ، وكل قدوة بالذين سبقونا الى الحياة .. كلا ــ والفـــارق بعيد بين التقليد والمسايرة ...

ونحن ندحض التقليـــد ، ونؤمن بالمسايرة .

ولكن ماعلاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية .. ؟

ان العـلاقة بينهما أكيـدة وواضحة .

فالتقليد ــ عبودية ورق ــ واهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية

والفرد حين يقلد فـردا آخر يمحو ذاتيته من الوجود . .

والدولة حين تقلد دولة تقليداً أعمى لو قع منشور نعيها وخبر وفاتها .. •

وفى بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأتيه ، ونهج ننهجه

وفى غيرنا من بلاد الدنيا المتحضرة عليت نزعة التقليد وهذبت ، وصارت تطوراً ومسايرة

يا للمشاهد المضحكة .. !

جماعات تقف فى أقصى اليمين ، وعلى أبصارها غشاوة . وجماعات أخرى فى أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء ..

ورجال دين يعلنون من فوق منبر الفاتيكان أن ملكوت الله ، ورحموت الكنيسة حرام على من يناصر الشيوعية ، أو حتى يتلو صحيفتها ..

فيقلدهم رجال دين عندنا كبار - مذيعين نفس الفتيا معلنين نفس الاعلان

وهنا يتبين لك الفارق الاكيد بين المسايرة والتقليد - فالفاتيكان ابتدع هذا النهج مسايرة لامريكا بعد ان اعتمد له « الكونجرس » علنا مئات الملايين من الدولارات جزاءاً وفاقا لحملته ومسايرته !

أما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء ..

والحكومات عندنا - الغت هى الاخرى عقلها - ومضت تقلد فى جنون وشغف -

فهى تارة تقلد « عنترة » ، فتخطب وتصخب ، وتبطش بالضعفاء لتزجر بهم الاقوياء ، وتمزق الهواء بالسيف ، وتهتف من « الشرفة » بسقوط الشيوعية ..

وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى فى الطريق

فلما سئل : لماذا يصنع هكذا ؟

اجاب بانه يريد ان يعرف الى اى مدى يبلغ صوته الجهير .. !

فحكوماتنا تحمل نفسها أوزارالعروبة ، وسفهها وفوضاها ـ لانها تريد أن تعلم . الى أىمدىيمكن ان يصل صيتها ،والى أى مدى تستطيع أن تسوس امبراطورية مترامية عندما يمن الله بها عليها .. !

لقد كان جحا قادراعلى معرفةمنتهى صوته ومداه لو أنهوقف مكانه ونادى بالآذان .. ولكنهأراد ذلك ليتيح للفارغين أن يقلدوه ، وينتفعوا بذكائه .. !اننا فى كارثة ، ونحن لاندرى ..

فالتقليد لدينا محور حياتنا

وهو يذهب صاعدا ـ فتقلدالجماهير روادها من كتاب وصحفيين وبرلمانيين ..

وهؤلاء جميعا يقلدون الروحالمتخلف من سكان الاضرحة والقبور ..

ثم يأخذ التقليد ترتيبا آخرتنازليا ، فنرى الشعب مثلا يصيح ..

هيا الى فلسطين ـ فيرددالكتاب والرواد صداه ..

هيا الى فلسطين ـ واذاالحكومة تصيح هى الاخرى ـ هيا الى فلسطين .. دون أن تتهيأوتستعد وتقف على صخرمكين.

والجماهير ـ تنفس عنغيظهاالعاجز المكبوت ، فتهتف .. تسقط الرأسمالية ..

وتقلدها الحكومة ، فتصرخ ـ تسقط الشيوعية .. !

ان عقليتنا السياسية تقلد ،وعقليتنا العلمانيةتقلد، وعقليتنا الاصلاحية تقلد .. لذلك نحنامة تافهة ـ فقدت نفسها لانها فقدت عقلها ـ فاذا أردنا اننجدانفسنا ونفرض على الآخرين وجودنا واحترامنا ، فلنقدرالعقل قدره .. ولنمكنه من أن يفكر فى حرية وانطلاق ـ لا يخاف وهما،ولا قانونا ـ ويساير النابهين مسايرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكفوفين .

عندما نتحدث عن الحرية هذاالحديث المتنوع ، فنقول حـرية الفكر ، وحرية الراي ، وحـريةالنقد ــ الى آخرهذهالتقسيمات، فليس معنى هـــذا أن الحـريةتتجزأ ..

ان الحرية وحـدها متضـامةمتداخلة لا تقبل التجـزئة ، ولا التفتيت ــ ولكننا نكسوها هـذهالازياء المتنوعة ــ تبعا لتنـــوع الظروف والمقتضيات ..والحريةهى الحياة .. والحياة لا تتجزأ ــ فأما حياة كاملة ــ وأما موتكامل ــ

من اجل ذلك صاح محررقديمــ اعطنى الحرية ــ أو الموت !
ونريد الآن ان نتحـــدث عنالحرية السياسية للشعب ــوهى الانفعال السامى لاعرق غرائزه ،وانفعها ، واغناها .

غريزة « انـــا » حب الذات ،واثباتها ، وتوكيدها ــانالشعوب المســتعبدة تعجز دائمــا عن انتقول : انا ..

اسمعوا هذه الحقيقة جيدا .

ان الشعب المسترقلايستطيعان يقول : انا ... مشيرا الى نفسه ..

ولكنه يقول : هو .. مشـــيراالى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم فى لسانه.. انِ يقول دائما :

انـــا .. انـــا .. انـــا

ان توكيد الشـــخصية يتطلبمددا زاخرا من قوىالفرد،وقوى الجماعة .. واذا كانت التعــاليمالمغلوطــة ، والاهانات المتكررة ، والاستعمار المتغطــرس .. اذاكانت هذه جميعا قد نزعت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد انتكون اهلثقة واعتدادوكبرياء .

لقدقرا نابليون فى صغره ــ انمن اراد انيكونشيئا ما ،فليهتف

كل يوم ثلاث مرات عن وعي وانتباه ـ يجب أن أكون ذلك الشيء ..

وذهب ، فكتب « لافتة » واضحة الكلمات ـ وناطها بجدار غرفته ـ وفى كل صباح يرتدى ثيابه ـ ثم يستقبلها فى وقفة عسكرية ـ ويقرأ كلماتها المكتوبة فى قوة :

ـ يجب ان أكون جنرالا .. !

وانكم لتعلمون أى شيء قد صار ـ نابليون ..

نريد ان تكون مجانين مثل الطفل نابليون ..

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم ـ انا مصر ..

نريد ان تصف كل سيدة صغارها واشبالها قبل منصرفهم من المنزل فى الصباح ـ وتطلب اليهم أن يصيحوا جميعا ـ نحن مصر ..

نريد أن تقف « طوابير » التلاميذ والطلاب فى ابهاء معاهدهم ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم ـ نحن مصر ..

نريد أن يفتتح النواب والشيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيحة الواثقة ـ نحن مصر ..

ولكن بعد ان تمثل مصر فى برلمانها تمثيلا صحيحا .. ينتظم فقراءها قبل اغنيائها .

لن نعرف حقنا ـ حتى نعرف أولا ـ انفسنا ..

ولن يعترف أحد بوجودنا .. حتى نثبت أولا هذا الوجود ..

والسبيل لهذا :

أن نقف ـ لنرى .

وان نتحدث ـ لنسمع

وأن نقتحم ــ لنخشى

وقبل أن نقول : نريد ــ يجب أن نقول : نحن !

واذا ما سئلت : اتدعو الناس الى الانانية ، وحب الذات ، وحب الظهور .. ؟ !

اجيب : نعم .. يجب أن نتحلى بفضيلة الانانية .. الانانيــة المستنيرة الفاضلة ، التى تحفزنا الى ادراك قيمتنا ، والعكوف على مطالبنا ، والنهوض بواجباتنــا ، والتشبث بحقوقنا ..

لقد قتلنا التواضــع ، وبددنا طول الانطواء والانزواء .. فلنبرز الى الافق ، ولنبصر أنفسنا من جديد ..

ان الانانية البغيضــة هى تلك الفردية التى تطويك على نفسك ، وتلفك فى اطماعك وشهواتك .. اما الاخرى التى نريدها ــ فهى تعرفك بنفسك ــ لا تطويك عليها ــ وتنشرك ضخما فخما عظيما ، لتملأ افقك وفراغك ..

ولكى يبلغ الشعب هذه المكانة ، ويحقق فى مجموعه هذه الفضيلة ــ يجب أن يبدأ افراده بذلك ..

غادر نفسك ــ اذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالاطماع ..

وانشىء لك نفسا جديدة لهــا مثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك .. واعكف على نفسك هذه .. فلن تكون انانيا بغيضا .. بل انانيــا مستنيرا .

واذا كان هناك ما يعين على هذه الطريق بعد أنفسنا ، فهو اتاحة الحرية السياسية لنا اتاحة كاملة لا تكتنفها عوائق ولا قيود .. فعن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومى والانسانى .

ان الحيــاة الســياسية للامة تنتظم كثيرا من العناصر والادوات ــ ولكنها تتركز اخيرا فى الحكومة ، والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للامةسياستهاـ والحكومة تقوم بتنفيذ هـذه السياسة ـ وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر فى البرلمان وتخضع له . .وهو يؤثر فيها ويخضع لها . .

والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو نديموقراطية الحكم والديموقراطيـة النيـابية ـ فلنتحدث عنهما ـ

ديموقراطية الحكم

لكى يكون الشعب حرا ـ يجب ان يسود . .

ولكى يسود ـ يجب ان يحكم

وهذه هى الديموقراطية . .حكم الشعب

وما دامت الحـكومة ثمـرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ، ليعينوا بدورهم نـوع الحكومة التى ستحكم . . فـان الشعب اذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته ، وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الاصلاح البرلمانى . . بيد أننا نريد أن تقرر هنـا أن الحكم الديموقراطى اذا غربت شمسه عن أمة ، فقـد غرب معـه اسـتقلالها ، ومال مستقبلها للمغيب . . وبعبـارة أخرى . .

ان الحكم الاستبدادى يقوض سيادة الدولة ، ويهيىء الامـة للعبودية والاسـتسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية فى عداد « الخائنين العظام » ـ لانه باستبداده ينزل الشـعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال . . فيرحب بكل طـارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقـاومة ضربا من العبث والجنون . .

ماذا وراءه حتى يحرص عليه، ويذود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربى :

وحبب اوطان الرجال اليهمو ‏ ‏ ‏ مآرب قضاها الشباب هنالكا

فاذاتلفت الشعب وراءه، فلم يجد لهذكريات سعيدة تستجيشه وتناديه ــ ففى سبيل ماذا يقاتل؟

وقال شاعر آخر:

لا أذود الطير عن شـــجر قد بلوت المـــر من ثمـــره

فاذا ابصرت الجماهير بالاشجار التى ابت أن تظللها من الهجير، وتطعمها من الجوع .. تجتاحها الاعاصير، أو تعدو على ثمارها الذئاب .. فلماذا تدافع عنها ؟!

لذلك لا نجد غازيا ســار عبر التاريخ الى مدائن ففتحهــا، أو عروش فدكها، أو امبراطوريات فاذاقها لباس الخوف والذل ــ الا كان استبداد الحكم فى هــذه البلاد المفتوحة الصريعة، الطريق المهــد الذى دخــل منه موكب الغازين ..

انصتوا لغوستاف لوبون :ــ

« اســتقبل كثير من البــلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها ــ فقد هرع ســكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين، واستقبل الناس فى مايانس هؤلاء الجنــود بحماس .. وغرسوا أشـــجار الحرية، واسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيـــوش الثورة الفرنسية تصطدم بامــم أذلها الملوك المستبدون، ولم يكن لها خيال تذب عنه ــ كان النصر يحالفها .. ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق كخيالها .. »

اذن فالحكام المستبدون فى أمةهم طابورها الخامس الذى يعمل بشعور أو لا شعور، لحســـاب الغزاة والمستعمرين ... وهم الذين يحيلون الشـــعب الصلب المتماسك الى زبد طرى تجــرى فيه السكين ..

---

(١) كتاب روح الثــورات ــ تعريب الاستاذ محمد عادل زعيتر

واذن فالامة يتقرر مصيرها ،يوم ينهض فيها حكم استبدادى ولو تلفع بأردية زائفة من الديموقراطية ، وما أروع ـ اذن ـ محمدا رسول الله حين يقول :

اذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة ..

أى اذا صارت أمور الامة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر الساعة .. الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الامة .. ناعية سيادتها واستقلالها .. ! وهل يكون المستبد أهلا للحكم أبدا .؟

انه لايكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى أن يكتب فى الدستور : الامة مصدر السلطات ثم يكون الواقع ـ ان الامة ضحية السلطات .. !

وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن يجرى فيهم دم مصر ، وآلام مصر وآمالها ..

***

ان الحاكم الديموقراطى يحترم الشعب ، ويجعله فى عينه أجل من أن يخدعه ، وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعا أدناها ، كأخطرها .. ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين تضطرب أمورنا ، فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته ، ونتساءل مانحن ..؟

عرب ـ أم فراعنة ..؟

ثم تتكاثف الدهشة حين نجدأنه لادين العرب الذين هم آباؤنا ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا ـ يبيح الاستبداد ، ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام ..!

فهذا هو الرسول يقول :

« مامن امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا اغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته ..

ويقـول : « اذا رأيتم الظالم ،ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذابمن عنده ..

ويقـول : «اللهم من ولى من امر أمتى شيئا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه ..

ويقـــول : « ان شر الرعاءالحطمة .

ويقول : « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهـــــم ..وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضـــــونكم ، وتلعنونهم ،ويلعنونكم .

ويقول : « اذا اراد الله بالامير خيرا ــ جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر اعـانه ..واذا اراد الله به غـير ذلك جعل له وزير سوء ــ ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه .

وهـذا عمر يعدو وراء بعير شـارد من ابل بيت المـال .. حتى اذا سئل :

الا نتعقبــه نحن ، وتستريح انت ياأمير المؤمنين ؟

اجاب وهو يهدر :

ولمـاذا اذن اكون للناس والياواميرا .. والله لو ضـاع عقال بعير بالعراق لخشيت ان يسالنى الله عنه ، ويقول لى :

انستودعك حقوق النـاس ،وتنام عنها ياعمر ..؟!

أى ان عمر رضى الله عنـه يقدرمسئوليتـه ازاء حق الشعب فى عقال بعير ــ فى حبل من مســد لايسـاوى شيئا ــ فكيف كان تقـــديره اذن لحق الشعب فى الحرية ..؟

هذا هو الاســلام ــ اذا كنا مسلمين ..

وماذا فى دين المصريين الاقدمين؟

انهـا نفس التعاليم التى تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعـــدل والمساواة بين ابنائه جميعا

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثانى لكتاب « قصة الحضارة » .. حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد منصبه ! ..

« اجعل عينيك على مكتب الوزير ، وراقب كل مايحدث فيه ، واعلم انه الدعامة التى تستند اليها جميع البلاد .. ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. واعلم أنها ليست اظهار الاحترام الشخصى للامراء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا ..

« انظر . اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وان يعطى كل انسان حقه .. واعلم ان المحاباة بغيضة الى الاله ، فانظر الى من تعرفه نظرتك الى من لاتعرفه .. والى المقربين الى الملك ــ نظرتك الى البعيدين عن بيته ..

« انظر . ان الامير الذى يفعل هذا ــ سيبقى هنا فى هذا المكان .. وليكن مايخافه الناس منك انك تعدل فى حكمك ..

« ارع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها هكذا متانقة متالقة ــ ولنتساءل مرة أخرى .

من أين لنا اذن مايصبغ حكوماتنا جميعا بصبغة العتو والاستبداد ..؟

من الاسلام . . ؟ لا ..

من المصرية القديمة ..؟ لا ..

اذن . فمن أين .. ؟ من أين تهب هذه الريح السموم ..؟

لابد انها من الماضى .. حيث الاستعمار التركى المتوحش .

ومن الحـــــاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث .!

***

لقد اتى على جماهيرنا المستعبدة حين طويل من الدهر زيف فيه دينهـا تزييفا هادفا ليسلس قيادها ، وتتلاشى أمام الطغـاة ارادتها . فقيل للمسلمين منا : ان نبيكم يقول :

« اسمع لاميرك واطعه ، وان جلد ظهرك واخذ مالك »

« كن عبـد الله المغلوب ، ولاتكن عبد الله الغالب »

« الزموا طاعـة امرائكم ، وان ظلموا . . ، فان الله مبتليكم بهم »

وحاشا محمدا . . ثم حاشاه أن يقـــول من هذا شيئا . .

وقيـــل للمسيحيين منا ان دينكم يقول :

« أيها العبيـد ـ فلتخضعوا لأسيادكم ، والخـــــوف يملأ نفوســـكم . ولا يكونن هذا خضــوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقـــين فحسب ـ بل وللشريرين ايضـا ـ رسـائل بطرس .

« أيهـــا العبيد ـ اطيعوا اسادتكم فى خوف ، ورعدة . . ـ الرسالة الموجهة الى الفيزيين

« على جميع من يخضعـون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهـم جديرين بكل تبجيل ـ الرسالة الموجهـة الى تيموتيوس . .!

وحاشـا روح الله ـ وحاشا حوارييه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئا . .!

انهـا اذن مؤامـرة فتيـل الاستبداد حبالها من زمن وسلك فيها ضحاياه من الشعوب .

فلنحـذر . . ولنعش أحرارا كما ولدتنـا الامهات ، وتشققت عنا الارحام . .

الديموقراطية النيابية :

واذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية فى الامة ، فالزم منها واخطر الديموقراطية النيابية ... فالبرلمان هو الذى يثمر الحكومة ، ويعين اونها .. وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن ارادة الشعب وحريته السياسية اذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة ..

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر اهمها :ـ

ا ـ حرية الترشيح ..

ب ـ حرية الاقتراع ..

ولنبدأ الحديث عن أولها ..

حرية الترشيح

ان المواطن الذى يتقدم الى الناخبين طالبا ثقتهم ، يجب أن يكون حرا .. ويجب أن يشعر بالحرية المطلقة شعورا غامرا حتى يواتيه الاحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولكن الترشيح فى بلادنا مصفد بهذه القيود .

١ ـ الدوائر المغلقة ..

٢ ـ العصبية والحزبية

٣ ـ القيود البرجوازية ..

***

اما الدوائر المغلقة فبدعة فى حياتنا السياسية .. وهى نوع مهذب لاسواق الرقيق .. لان فحوى هذا النظام أن تتفق الاحزاب على توزيع مناطق النفوذ .. فياخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لاتكون لهم موهبة سوى موهبة التبطل والفراغ ..! ويحرم على

ذئاب الحزب حرف (ا) أن تعتدى على ذئاب الحزب حرف (ج)
بل لماذا نظلم الذئاب .. ؟

ان نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح ويجعل احزابنا قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والاحياء .. ! ولا بد لكى تنال حريتنا النيابية من الغاء هذه البدعة وتحريمها .

***

وليس بخاف عنا ، اثر العصبيات ، وقوائم الترشيح التى تصدر عن الاحزاب ، فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق بعيدة جدا عن الحرية والديموقراطية .

ولقد أهدرت من وقتى كثيرا لكى أتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيح الحزبى التى صدرت فى بلادنا .. وامامى الآن منها خليط متنافر ، لاحزاب عدة لن اذكر لك اسماء .. وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم ليسوا اكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق .. !

لقد آمنت بأن الاحزاب لا تحترم الشعب ابدا مادامت تختار له هذا الاختيار ..!

ان الحزب ـ فيما يبدو ـ لا يريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه ولكنه يريد ـ بوليصة تأمين ـ تؤمن خزينته من الاعواز ونفوذه من الخذلان .

وهكذا تبيع الاحزاب ـ الناخبين الى مرشحيها .. ثم يعود المرشحون .. ليبيعوا الناخبين ومصالحهم الى الاحزاب ولسنا ننظر الى خطر قوائم الاحزاب من هذه الزاوية وحدها ـ بل ومن الزاوية الاخرى حيث تستعمل الاحزاب نفوذها ـ غالبا ـ فتعمل على انجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب .. ومن زاوية ثالثة ـ حيث يتسم النظام النيابى بما قد يصلح وصفه بالخسة والدناءة .. اذ لا يسجل اسم مرشح فى

قائمة الحزب الا اذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح — هذه جريمة بشعة ..

فنحن نعلم ان المرشح لايدفع الفامن الجنيهات مثلا الا ليضمن بها الفوز والانتصار .. والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهدا لاجله . ويقبض منه الثمن على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هــــذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

اهى سمسرة ؟ اهى غش وتدليس .. اهى تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين ؟

نعــــم — هى كل ذلك . . والغرم دائما على الشعب الاسيف فالمرشح الذى يرشو حزبه بالف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها . يعود فيتقــاضى مادفعه أضعافا مضاعفــة . . ومن أين ..؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو اذا نجح فى الانتخاب يصــير رجلا ذا نفــوذ .. وهذا النفوذ لايتحرك لقضاء حاجــة الا بثمن .. لايسمــونه طبعا رشوة ، ولاسمسرة . انه فقط (مصاريف) الانتقال . وثمن القهوة ، أو ثمن البنزين .. !

وللذين يوضعــــون فى قوائم الترشـــيح أثمان متفــاوتة ، تختلف باختـــــلاف الدائرة ، والحزب هـــل الدائرة مقفلة أم مفتوحة ؟ لكل من الاثنتين ثمن ! وهل الحزب ضالع مع الحكومة التى ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن

وفى أحزابنــــا تقرع أجراس المزايدة .. والاوكازيون .. ففى هذا الحزب تساوى الراس . . خمسمائة ..

واذا كنت رجــلا رقيق الحال فلا تحــــزن .. ستجد أحزابا أخرى رقيقــة الحال مثلك تثمن راسك بثمن بخس — مائة جنيه مثـــلا .. وخمسين أيضا اذا هانت عليك راســك كل هذا الهوان ..!

***

فاذا غادرنا القـوائم الى العصبيات ، ألفينا فسادا كبيرا فهناك ترى مثلا ـ رجلا مفرط الجسامة ، منتفخ الاوداج .. حذار أن تطيل اليه النظر ،وتحملق بعينيك الفضوليتين فى وجهه الكريم .. انه السيد المالك .. الذى يملك القرية كلها . .وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة ـ أن يعلن فى كلمات متأففة متكلفة .. انه سيدخل المعركة ، فلا تكون قط معركة .. لن يجرؤ أحد مهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته

ولقد حدث مرة أن اجترأ رجل فاضل جدا ، ومثقف جدا ـ على ترشيح نفسه فى احدى دوائر الصعيد امام سيد كبير .. فضرب السيد الارض بقدمه فانشقت ـ وخرج منها أحد خدمه وعبدانه .. فانسحب السيد من الترشيح ، واقسم بعزة آبائه انه لن يرشح سوى هذا ، ولن ينجح سواه . .،هذا الخادم الاقرع الاعرج الذى يتبول على نفسه ، ويظن ان السماء تمطر رذاذا ..!!

وقد كان .. واحرج الرجل المثقف الفاضل ـ كان يمر بالدائرة فى بضعة انفار من عصبيته المتواضعة ..

وكان خادم السيد يسير فى موكب يزرى بالمواكب ، وكرنفال تهتف الدنيا له ..!!

لاباس ان يرشح الخدم وينتخبوا ـ فهذه دعوتنا ورسالتنا ـ أن يحرر العبيد ،وترتفع قيمة الانسان ..! ولكن الموقف هنا مختلف اختلافا بعيدا .... وهو من الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارىء وذكائه ..

ان العصبيات وقوائم الترشيح تطأ حرية الاقتراع بأظلافها وتبددها تبديدا ... والدوائر المغلقة كذلك ـ ورابعة الاثافى ، ان كان للاثافى رابعة .. هى :

انها تسجن امكانيات الشعب في قانون ...

قانون لايسمح لك بالترشيح الا اذا دفعت مائة وخمسين جنيها .. والا اذا كانت ضريبة الدخل التى تدفعها عن أملاكك وأطيانك مائة وخمسين جنيهـا كذلك اذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !

ان مقاييس الجدارة فى بلادنا لا تزال أبعد ماتكون عن المواهب الجديرة بالاحترام ..

انها تناط بمالك .. ووسامتك .. ونوع الدوحة الـكريمة التى تنتسـب اليها .. !

وقد يحسب المثرون أن مائة وخمسين جنيها للتأمين شيء غير معجز .. وهـم معـذورون لان أكوام الذهب والورق التى أمامهم تخـفى عنهـم ملايين المواطنين الشرفاء .. الذين يعيشون من اليـد للفم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها ولكنه يوم يموت لايجد أهله ثمن الكفـن الذى يلف حطـامه ، وعظامه ..!

ثم ان هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة

قد يقـال : ان هذا التأمين الذى يؤهلك للترشيح .. أو ذلك الشرط المادى الذى يشترط ملكية خاصة تؤهلك للشيوخ .. انما توخى بها القـانون تنظيم الترشـيح ، وحصره فى نطاق معتدل معقول .. حتى لايتقدم كل من هب ودب ..

وسنفترض ان هذا هـو الباعث ؛ وانه باعث سليم . وعندئذ نسأل :

لماذا تناط المسـألة اذن بالمال . . ؟

هنا تبرز الاغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ؛ والتفكير الاقطاعى الذى يمسـك زمـام المجتمع وزمام الحياة . .

فليكن المناط فى هذا المجال ـ العلم ... المؤهل العلمى ... وحتى هذا نحن لانرضاه .. ونرفض أن تقيد ارادة الترشيح بأى قيد سوى قيد المواطنية .والصلاحية ..

ومن القيود البرجوازية ايضا السن ..

فانت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى تبلغ الثلاثين .. وقد تسقط فى أول محاولة لك !

وفى الثانية أيضا .. فلا تتمكن أن تخدم بلادك داخل البرلمان الا ابتداء من الاربعين مثلا .. ! .

ألسنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ، أوالخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له ان يكون محاميا، أو طبيبا ، أو أستاذا ، أو قاضيا .. ؟!

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ،فتعهد بها الى الصبيان .. ؟!

أى فارق بين وكيل للنيابة فى سن الخامسة والعشرين يجلس الى يمين القضاة .

وبين وكيل للامة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة البرلمان .. ؟

فلتفض هذه القيود ..

فلايشترط التأمين ـ ولادفع قدر من الضرائب محدود . ولا سن الثلاثين ـ ولا الاربعين .

ان سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ؛وحددته باحدى وعشرين هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه ـ النواب والشيوخ. نبدأ منها ، ونظل مادام فينا جلد وقدرة وحياة..

***

وبعد؛ فان مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الامة ،بقدر

مامثلت الحزب .. وكان هذا سببا مباشرا لكل مانعانيه من ويلات

والبرلمان الذى ياتى ثمـرة هذهالاوضاع الفاسدة ـ لايحكم الحكومة بل تحكمه ..

ولايعزف عن تأييدها أبدا ـ عدا محاولات ناشئة بدأنا نحسها في البرلمان القائم .. قدتتضاعف وتنمو ـ وقد توجه اليهاصيحة زاجـرة ، فترتد على أدبارها ،وتنكص على أعقابها..

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ـ وافق مجلس العمـوم البريطانى بأكثرية (٢٣٥) صوتا ـ ضد (٢٢٩) صوتا .. على تعديل تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية .. أى ان حزب المعارضة انتصر عـلى الحكومة فى برلمان لها فيه أغلبية الاعضاء والآراء ..

فما دلالة هذه الظاهرة الـتى تتكرر كلما تكررت مقتضياتها.؟

انها تدل على ان النائب هناك ،يعرف نفسه جيدا .

ويدرك انه يمثل الامة فيالبرلمان ويمثل الحزب فى الامة .

أما عندنا ، فالنائب يمثـل الامة فى الحزب ، ويمثل الحزب فى البرلمان .!

فارق كبير جدا ـ فمتى نبلغ مبلغ الرجال. ؟

ب ـ حرية الاقتراع .

الاقتراع ـ هو الادلاء برأى حر فى اختيار ممثل لمجموعة مـن الناس ـ يثمر تلك المنظمة النيابية التى نسميها « البرلمان »

والبرلمان ـ هو الهيئة المختارة الممثلة للامة، والتى تثمر الحكومة الديموقراطية ، وتراقب سلوكها

والحكومة ـ هى الهيئة التى تقوم بحماية الدولة ، وتنفيـذ قوانينها ، ورعاية مواطنيها ..

واذن ، فنحن حـين نختار نوابنا ، أو شيوخنا ـ نختار فى

نفس اللحظة الحكومة التي ستحكمنا ، بل والقوانين التي ستسيطر على مجتمعنا ٠ والسياسة الداخلية والخارجية لبلادنا ...

فاذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية في سياسة وطنه ـ لايسهم في تقرير مصيره ٠ ٠

واذا تكون كريهة يدعى لها ـ واذا يحاس الحيس يدعى جندب فمعنى هذا انه ـ كان الله معه ـ لاينتخب ، ولايختار ٠٠ وانما يساق سوقا عنيفا ، أحيانا ـ ورفيقا، أحيانا أخرى الى التصديق على الذين تضعهم الظروف السعيدة أمامه من مرشحي الاحزاب ، ومرشحي السلطات، ومرشحي العصبيات ٠ !

هذه هي الحقيقة ٠ ٠

ان الحرية السياسية في بلادنا كالاشترا يه تماما ... كلتاهما أكذوبة على شفاه الكبار .. وهم في أحلام الصغار ٠٠ !

أصحيح أن الناخبين حين يساقون الى الصناديق بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رايهم واملاء ارادتهم .. ؟

أصحيح ان هذا المواطن المحطم المتهالك الذى يحمل هموم الثقلين ٠ ٠ ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطون جائعة هي بطون زوجه وأولاده ٠

هذا المسكين الذى برقت أمام حاجته وحرمانه ورقة بنكنوت ، تتيح له امتلاك خمسين قرشا تجعل جحيمه فردوسا أعلى ٠٠ وتجعله في لمح البصر من الاغنياء والموسرين ٠٠ ! على أن يعطي صوته لرجل لايعرف عنه شيئا ؛ الا انه أحياه ٠٠ يوم كانت حياته منوطة بهذه الخمسين ٠٠

أتظنونه سيأبى ٠٠ ويذهب ليختار مرشحا آخر لايرشو ولا يعطى ٠٠ ؟

كــلا ـ ولو كان مرشــح الشماء . . !

ومواطن آخر .. ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير ، فيؤمر أمرا باختيار مالكه . أومن يهبه المالك رضاه ، فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفا مكتئبا يحسد الآخرين الذين هــم فى منع أصواتهم أحرار .. يبيعونها بالثمن الذى يشاءون . .

أتسمون هذا انتخابا .. ؟

أعرف فى مصر « تفتيشا » غليظا أنا أحد رعاياه .. وقريتى كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه ـ ومعها بلاد وبلاد ..

فاذا جاءت انتخابات ؛ لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون عــلى أبواب الناخبــين ، ولا يسعون اليهم .. بل يتسابقون الى سراى التفتيش ..

وهناك يجلس « البــــك » « المفتش » ينقر مكتبه الانيــق بانملة ســـبابته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا .. ثم يومىء اليهم بطرفه ، فيخروا ساجدين .. !

فعندما تزور « البك » المفتش وتصلان معا الى اتفاق معلوم . ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعا أصوات هذه البلاد جميعا .. وفى يوم الانتخــاب « المشئوم » يساق القطيع المسام يثغو ثغاء هزيلا ..

من تنتخبوا .. ! التفتيش . !

من نائبكم . ؟ التفتيش . !

انظر .. انهم لن يختاروك فحسب ، بل وســـيجعلونك تفتيشــا .. !

حدث هذا ، ولايزال يحدث . وفى يــوم من تلك الايام التقى أستاذ فاضل باحدى المــدارس الثانوية بمعاون التفتيش ، وهو واقف بين الناخبــين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ، وكرامة الانسان ، وثار فى عنف ...

وثار معاون التفتيش فى عنف أكثر ..

كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها ..

وكان الثانى يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم ..

كان الاول يترافع عن حقوق الانسان ..

وكان الثانى يترافع عن حقوق الاطيان .. !

ماالكرامة .. أمام تفتيش، فى بلد كمصر .. ؟!

وماحقوق الانسان .. أمام الاطيان ، وآلهة الاطيان ، فى بلد كمصر ..؟!

انتخاب هذا .. أم انتهاب ؟

اختيار هذا .. أم اقهار ؟

كل شىء فى بلادنا مظلوم . حتى اللغة ـ حتى الكلمات ..!

ان الانتخابات ـ هنا ـ ملحمة عظمى ، تصرع فيها ارادة الشعب وحريته ..

وهذه الجماهير المتراكضة تسخر فقط لحمل الاعضاء على الاكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان .. وهناك يسمح لها بالعودة .. فتعود الى نجوعها، وجوعها تقرع سن الخيبة ، وتزدرد آمالها اللاغبة وامانيها المتعبة .. !

ان حرية الاقتراع تعيش فى هذه الاصفاد .

أ ـ الاقطاعيات والتفاتيش . وقد ضربنا من واقعها مثلا .. نعتقد انه يتكرر فى كل ضيعة وتفتيش .

ب ـ الرغبة العامة فى التزييف ..

وهى تبدأ من رجل البوليس ـ وتنتهى عند رئيس الحكومة .

أما رجل البوليس الذى يقترف هذا الوزر ، فيكون حافزه غالبا المجاملة ، أو المعاملة ..

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس، أو نتهمها ٠٠فليسوا سواء ٠٠ اننا نشخص مرضا من أخطر أمراض مجتمعنا ، ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ في نشوئه، ومضاعفاته والبعض الآخر عف كريم

هذا الرجل البوليسي الذي يخون واجبه، ويسيء استعمال سلطته ـ يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسك أزمتها بواسطة شيوخ الخفراء في القرى ، وشيوخ الحارات في المدن ، ثم يوجهها حيث يريد .. انه يهدر أمانة الواجب من أجل مجاملة أو معاملة ..

أما الحكومة التي تجري الانتخاب ـ فاما أن تكون حزبية ،أو لا تكون ٠٠ فان كانت ،فان الحزبية تدفعها الى توكيد ذاتها ، ونشر لوائها ، فتزيف ـ وان كانت محايدة تنتابها الفلسفة المكيافيلية ٠٠ فالغاية تبرر الوسيلة ـ والغاية عندها، ايجاد برلمان صالح ٠ ٠ حسب فهمها الخاص لكلمة صالح ٠ ! والوسيلة هي اكراه الناخبين على اختيار الصالحين ٠ ٠٠ الصالحين في نظرها أيضا وهي تقنع نفسها بأن الشعب جاهل، ولا يحسن الاختيار ٠ وهذا حق ٠

ولكن ،. ماالسبيل لان يتعلم ،ويحسن الاختيار ؟

الطريق هو الحرية ،والتجربة٠٠ ٠

دعوه يتخير ، ويخطيء ـ ثم يتخير ، ويخطيء حتى يبزغ اليوم الذي تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختر في توفيق وسداد

ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعيا رشيدا .. ؟

انه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثرا بالخطايا والاخطاء ـ حتى اذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى ـ اتخذ من عثرات ماضيه ، وتجارب أمسه درسا هاديا ، وعصمة واقية .

فليعلم رجل البوليس ـ ان الواجب ـ أسمى من المجاملة ،

وابقى من المعاملة .. وليتق الله فى أمته التى قطعت فى ممارسة الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ... ثم كأنها تبدأ اليوم .. بل كأنها لم تبدأ بعد .. !

وليعلم الحاكمون أن الخطأ وسيلة الصواب .. ولابد أن نخطىء اليوم ، لنصيب غدا . وان الحاكم الذى يزيف ارادة الامة انما يقف نموها ، ويلاشى شخصيتها .

ج ـ رشو الناخبين ...

وهـذه الرشا التى تقـدم للناخبين جهارا علنا تضرب حرية الاقتراع فى الصميم ..

وقد تسال : اليس النـاخب الذى يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختـارا ، ويصوت فى حرية .. ؟

والجواب طبعـا ـ لا ـ لان الاكراه ليس فقط للقوة ، بل هو ايضا للضرورة ... وهذا الذى استكرهته ضروراته على بيـع صوته ـ مكره لا مختار ... ففضوا عن عنقه اغلال ضروراته ، وحاجاته .. والى ان تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فيجب أن تحـرم الرشـا فى الانتخابت تحريما زاجرا ... وتشرع عقوبة مؤدبة لا للاخذ ـ بل للمعطى ـ فالمرشح الذى يثبت عليـه انه رشـا ناخبيه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ الجزيمة لعله يتذكر او يخشى ، فذا عاد ـ حرم هذا الحق الى الابد .

من كان منكم لم ير .. فقد راى آخرون ، مرشـحا غير محترم .. كان سيصير نائبـا محترما .. ! يقف امام لجنـة الاقتراع باحد اقسام البوليس ، ويشطر الجنيـه شطرين ، ثم يعطى للمقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتاكد من انتخابه ، فاذا عاد تسلم نصف الجنيـه الثانى ... !

يحـدث هذا ـ علنا ، وامام قسم البوليس وبعض رجاله ..

ان نصف الجنيه كان فى المعارك الانتخابية الاخيرة ، خطيبهـا

الساحر ، وفارســـها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضي عليه، أو يقضى علينا .. !

وبعد ، فان كثيرين يحلو لهم أن يعزو فشلنا القومي الى ضعف الرقابة البرلمانيـــة على الحكومة .. ولكن اية رقابة هـــذه التى نتهمها بالضعف ، اذا كان البرلمان نفسه لم يوجد بعـــد .. ؟

ان الحياة البرلمانيـــة الحرة الطليقة المنتجة ــ لا تزال مقرنة بالسلاسل التى ذكرنها ، والتى نعيدها لك كى لا تنسى ..

ا ــ القيود البرجوازية ..

ب ــ نفوذ التفاتيش ، وآلهة الاقطاع ...

ج ــ اغراء الناخبين بالرشوة

د ــ الرغبة التامة فى التزييف

هـ ــ ضعف الايمان بصلاحية الشعب للاختيار

و ــ الدوائر المغلقة ...

ز ــ قـــوائم الترشـــيح ، وسيطرة العصبيات ..

وحدث نتيجة لهذا ، أن نظام « حكم الاسر » الذى كان قائما فى العصر البدائى وفى الامبراطورية الرومانية القديمة .. صار هو الحكم القائم فى مصر .. !

فالذين يســيرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هـــم حملة « السندات » وأبناء الذوات .. والبرلمانات عندنا لاتمثل الشعب كمـــا تمثـــل الاسر الـكبيرة ، والبيوتات الشريفة .. واذا كان البرلمان هو الذى يثمر الحكومة استطعنا أن نعرف نوع الحكومات التى تتعاقب علينا ..

لقد طال بنا الجدل ، والخلاف حول لون الحكم فى بلادنا .. أهو ديمقراطى .. ؟ أم هو أتقراطى؟

ولكن بعد استعراض الوضع النيابى عندنا على هذه الصورة

لا نشك فى انه لا ديمقراطى ــ ولا اتقراطى ...

انه شيء آخر استعرناه من القدم ــ هو بالاتقراطية اشبه ــ واسمه يا ابناء وطنى ــ حكم الأسر ...

ولقد كان الركود ، والاهمال اثرا محتوما لكل انتخابات تجرى على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان ..

خطر لى ان اقف على مدى اهتمام الاعضاء بحضور جلسات البرلمان .. ومددت يدى نحو المضابط اسألها واستفتيها .. فوجدت حشدا كبيرا من النظائر والاشباه لهذا الاحصاء الذى ستقراه الآن .. وانا انقله اليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة	نسبة الغياب
الرابعة	٥٤ شيخا
الخامسة	٣٠ شيخا
السادسة	٥٠ شيخا
السابعة	٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الامة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب عنها خمسون عضوا ــ أو اربعون

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد حتى يتغيبوا جميعا .. ؟

لعل حضرات الاعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا يضيعونها فى حضور جلسات لا جدوى لها ...

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت ان الجلسات التى تنظر فيها المشروعات الجليلة الخطيرة المحرجة تظفر بنسبة كبرى من الغياب فى أحايين كثيرة .. وهنا يكون التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين

يصير العدد غير قانوني . او فرارا من التورط فى مخالفة الحكومة ومعارضتها .. !

واللجان البرلمانية هناك غليظة الاحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه .. ولانكاد نلتمس دليلا لذلك .. حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها .. وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم ـ محمد خطاب بك بشأن استعمار الاراضى المستصلحة ..

ان قصة هذا المشروع . . قصة كثير من المشروعات الصريعة التى اتخذت من سراى البرلمان ضريحا ..!

وفى هذه الخطوات تثوى قصته ، وقصتها ...

١) قدم المشروع فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٥

٢) عرض على خمس لجان ـ الاقتراحات، المالية، الشئون، المالية مرة اخرى، العدل رقم ٢

٣) اختصر من ٤٨ مادة الى عشرين مادة

٤) لا يزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ الى عام سنة ١٩٥١ .. ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترع عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن احساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع أن يرتطم المشروع فى صخرة .. او يسقط فى حفرة .. لماذا .؟

لنفس الاسباب التى جعلته يهمل ، ويدس فى الاضابير كل هذه الاعوام .!

وتتلخص فى ان المشروع شعبى يهدف الى تحريم بيع الاراضى الحكومية التى تستصلح ، للمالكين .. وبيعها فقط بوسائل ممكنة للمعدمين الذين لايملكون شيئا ..!

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الارض وتعدها للزراعة ـ فيقفز بعض الكبراء والباشوات ويشتريها بأبخس الاثمان .. !!

فيصادف مثلا ـ أن يشترى قارون كبير ضيعة واسعة من هذه الارض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ، ليقتنيها ، أو ليبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمائة جنيه.!

فلو ان الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التى يختار فيها نائبه ، أو شيخه ، فاختارهم من الذين ينوءون بمثل أعبائه، وبلوائه .. لما مكث مثل هذا المشروع اكثر من اسبوع .

واذا كنا نبغض الظروف التى تجعل من الناخب مطية تسخر وتذلل .. فلا يفوتنا ان نقول للناخب نفسه: انت ايضا مسئول

لماذا لايستعمل المثقفون حقهم فينتخبوا ..؟

ان الاحصاء الرسمى ينبىء بأن الذين ينتخبون من عام ١٩٢٤ ـ الى اليوم هم الاميون من عمال وفلاحين ـ واذا ظللنا نحن الذين اخذنا من الثقافة بحظ. متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه احسن وسيلة ننتحر بها ، وتنتحر بها البلاد

واخيرا ـ الحرية .. لا التسامح

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعا .. حرية النقد، والفكر ، والمعارضة ..

وبقى شىء يجب ان يختتم به هذا الفصل ..

لقد لاحظ القارىء اننا لانخص بحديثنا فى هذا الكتاب الشعب وحده ، ولا الحكومة وحدها. بل هما معا .. وهذا ثمرة اعتقادنا بانه فى الامكان ان يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل اهدافها .. ولكن الحاكمين عندنا هم الذين لايريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من حريته، فباسم التسامح والعطف .. لا الواجب والحق..

ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية، لا التسامح. فالتسامح شىء يعتمد على الرغبة ، والتفضل .. اما الحرية فحق محتوم..

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة ..

والحاكم الذى يمكننى من حق باسم التسامح يستطيع ان يسلبنى نفس الحق باسم التعصب

ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كافحا من اجل الحرية كفاحا باسلا .. هما توماس بين ، وميرابو .. يقول « بين » :

«ليس التسامح عكس التعصب» بل هو تلفيق له ــ وكلاهما تحكم واستبداد ، فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية(١) »

ويقول ميرابوا : ــ

« ان الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة التسامح كانها نوع من الاستبداد لان السلطة التى يتراءى لها أن تتسامح ، قد يتراءى لها أن تتعصب . »

هذا كلام جليل ، ويجب ان نؤمن أعمق الايمان أننا ــ نحن الشعب ــ لن ننال الحرية ، بل ولن تكون لها اهلا . حتى تكون الحرية ، لا التسامح ــ المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط به وجهتنا .

ان الحاكم الذى يتسامح مع أمته متاله دعى .. وهو لا يوجد الا فى الامم التى تسودها فلسفة البر والاحسان والخيرات .. هنالك يتكىء على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح رعاياه وعبدانه ما يجود به من حرية وحق ..!

اما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن أن يبذلها كما تبذل المنح والصدقات .

---

(١) كتاب حرية الفكر ــ ج ــ بيورى

ان « توماس بين» يصعــــدبالحـرية الى قمة الاجلال حين يضرب للتسامح هذا المثل ..

« لو ان أحدا قدم الى برلمــاناقتراحا بمشروع قانون سمح لله أن يتقبل عبادةاليهودوالاتراكأو مشروع قانون يمنــع الله من قبــول عبادة اليهود والاتراكلكان ذلك تجــديفا فى حق الله وكفرا به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحريةلهـوا ولعبا ــ واللذين يتجشأون كل يوم قانونا يسـمح للشعببنصيب ضئيل من حريتـــه وقانون يحرم عليـــه منها كثيرالايقدرون الحرية قدرها ، وهم يجـــدفون فى حقها ، وفى حقالشعب تجديفا وقحا عنيفا . .

ومن اسف ان الشعب هـــوالذى يحرضهـــم على ذلك ..! فافراده فى تعاملهــــم المـادىوالادبى يقيمون هذا التعامل على اساس من التســامح لا الواجبويبــــدو ذلك واضحا فى مسائل العقـــائد والتقاليد والفكر .. فاقصى مانسمح به لانفسنا فيما يمس هـــــذه ــ هو التسامح ،والتسامح كثير ..!

ومنشـــــأ هذا التزمت اناضعفاء ، فاقدو الثقة بانفسنا ، واذا كان فاقـــد الشىء لايعطيهفقد عجزنا عنالثقة بما فىالحقائق من قوة ذاتية تكفل لها الغلبـةوالبقاء . ومن ثم جعلنا وسيلة حمايتها الامــلاء ، لا الاقناع ..والتسليم لا الاقتناع.. وحرمنا الفكر حقه فى الحرية ، ومنحناهقليلا من التســامح . وبسبب هذا الغبـــاء نضبت الحياة منتقاليدنا وافكارنا .

يا ليتنا نصغى لهـــذا النبأونعيه ..

فقد ذهب الى الرسول عليهالسلام نفر من أصحــابه ، وقد استطيرت ألبابهــم روعا ومخافةوقالوا له :

ــ يا رسول الله . ان أحدناليجد فى نفسه مالان يحترقحتى يصير حممة ، أيسر عليه من أنيتلفظ به .. مشــــيرين بهذا

الى ما كانوا يجدونه فى انفسهم من شك عاصف فى الله ، كما وضحت ذلك رواية اخرى للحديث .

فأجابهم الرسول :

ــ الحمد لله . . ! هل وجدتموه ؟

هذا صريح الايمان . !

هنـــا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح

لقـد كان قادرا على أن يقول لهم : لا باس ، عفـا الله عنكم . . أو سيغفـر الله لكم . وهذا هو التسامح . .

ولكنه كان اكثر اجلالا للحرية ــ حتى حرية الشك ، والاسترابة فاعترف بها ، وجعلهـا محض المعرفة ، وصريح الايمان ــ وكان بها حفيا . . !

ذلك انه يعلم أن الحرية حق للناس ، وان تمتعهم بهذا الحق كاملا غير منقوص ، هو افضـل الوســائل لترقية انسانيتهم ، وتعلية نزعاتهم ، وهدايتهم الى الحق ، وتثبيتهم على الهدى ــ ويعلم ان احتـرام حرية البشر ينعش فيهـم كل قوى الفضيلة والخير والجمـال ، فلم يتسامح معها ــ بل سلم بها ، وزكاها .

***

ان اليوم الذى يرفض فيـــه الشعب أن يساوم على حريتــه أو يتنــاولها من أكف التسامح ، والاحسان ــ لهو اليوم الذى يبلغ فيه رشــــده ويقف على قدم السوائيــة الفاضلة مع الشعوب الحرة ، والعالـم المتحضر الكريم

***

وقبل أن ننهى هذا الدفاع عن الحرية نقــول : انه اذا كان فى تصويرنا للكبت الذى نعانيـــه مبالغة ــ ، فهى مبالغة طفيفة . واذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . . !

ونحن على الحالين لاننسى ابدا تلك الجهـــود النبيلة التى بذلت مـــد ثورة «١٩١٩» فى سبيل الحـــرية ، واذا كان الاستعمار الرجيم قـــد ثبط عزم هذه الجهـــود وضللها ، فلا بأس ، ولنبدأ من جديد .

***

ولقـد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطـة بغريزة الاقتناء فى الفصـــل الثانى من كتابنا ــ من هنا نبدأ ــ فهناك يستبين لنـــا اثمارها وارتباطهـا الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير ..

ان غريزة الاقتنـــاء يناط بها تحرير البشر من اغلال الضرورات

وليس نشـــاطها كما ذكرنا فى حديث الفصـــل الاول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كمـــا انه لا يتحتـم احتواش التفاتيش والضياع ..

ان اقتنـــــاء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التى تهتف بها اليوم حضارة الانسان

***

وبعد ، هـــل نحن جادون فى نشدان الحرية .؟

اذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع ان يتقبل امانتها . .

الشعب الذى تثق به الحرية . . ويثق بها .

الشخصية .. كي تعمل

« ان كل شيء معد ..
« اذا كانت شخصيتنا كذلك »
شكسبير

القيصر الاخشيدى ..

هل ذهبت يوما لعيادة صديق لك فى مصحة الامراض العقلية ؟

ام ان اصدقاءك جميعهم من العقلاء ..؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق.. واذ كنت سائرا فى وصيد المستشفى ، سمعت صيحة صاخبة تتعقبنى من وراء قائلة:

ـ هو .. خلفا دور ..!

فلما التفت وجدت عملاقا ضخما طوله شهر .. وعرضه عشر . . فسألنى :

ـ هل تعرفنى ؟

فاجبته : معذرة ، فانى لم اشرف بمعرفتك من قبل

قال : انا القيصر الاخشيدى !

ـ مرحبا . سيدى القيصر .

ثم سألنى : هل تحب ان اوليك امارة .؟

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدى القيصر .

فضحك .. وقال : (خلاص) ساعزل احد ولاتى ، واضعك مكانه ـ ثم مد الى ذراعين مجدولتين ..

وقال : تعال ـ تقدم ..!

قلت : الى اين ؟

قال : الى هناك ـ الى الولاية انها فى المريخ وساحملك بين يدى وتغمض عينيك ، واقذف بك فى الهواء ، فيحملك اليها .!

قلت له : اذن ، فاعطنى فرصة للتفكير ..!

وطفق يحرك سبابته فى الفراغ ـ كأنه يدير قرص « تليفون » ـ ثم وضع قبضته على اذنه ، وفمه .. وشرع

ـمهم ، ويصـــدر تعليمـــاته« باللاسلـكى » الى المريخ ..
ـاليا مرسوم العزل ، ومرسوم التعيين ..!

***

ما أسعد هذا القيصر الـذى استراح مما يتعب العقلاء ..!

وما اشبه الجماهير به حين تركب ثبج الغفـــلة والغـرور
الانخداع ، فتخال نفسها كهذا القيصر الاخشـــيدى . تـولى
تعزل ، وتضع وترفع ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ..!

ومـا اظن المســـــتعمرين ، والمســتبدين يفرحـون بشىء
ترحهم للشعوب حين تصــــاب بهذه الآفة المسكنة ، والاخشيدية
الواهمة ..

وهم حين يحســون بواكيرها فى شعب ــ يعملون دائبين على
شيوعها وانمائها ــ لأنها تشفى قلوب الجماهير مما تجـد ...
تسرب غيظها فى مسارب الاحلام .. وتحول طاقتها الهادفة الى
ضجة فارغة . وتحتبس طموحها المتسلق الوثاب فى قمقم هـذه
لاخشيدية السعيدة بجنونها ، وغرورها ..

***

الا أن شعبنا الضرير يعيش فى الوهم .. ويقيم داخل اهابه
ــ قيصر اخشيدى ــ من طراز قيصر المستشفى ..

ذلك الذى لم يعلم انه قيصر زائف حتى اشرت الى السلاسل
التى يجرها فى قدميه ، والتى صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ،
وتصده عن الافتراس .. وقلت له : ــ لو كنت قيصرا حقـا ،
ما سلكوك فى هذه الاصفاد ..! والقى على اصفاده نظرة واجمة
عميقة . ثم ضرب صدره بيده وقال : ــ

ــ آه .. لابد أنهم عزلونى .. انا اذن قيصر مخلوع ..!

قلت له ، وانا أودعه : ــ نعم .. انت قيصر مخلوع .

***

هنا مشابه كثيرة بين قيصرناهذا ، وبين الجماهير .. ولكن الشبه الوحيدالذى يهمناوجوده۔ هو ذلك الوعى الذى يرفعءن أبصارنا الغشاوة ، لنعلم أننــاشعب مخلوع ومعزول ـ

والآن .. فلنحرك اقدامنا ،فان أحسسنا بها ثقلا ، وسمعنا قعقعة الحديد .. وقهقهةالقيود.. فلنعلم انها الاغلال .

ان بداية البدايات فى نهضـــةالامة أن تعرف نفسها ، وتتبين فى دقة وضعها ومكانها .. ولنتستطيع حتى تتخلى عنأوهامها وتواجه حقيقتها فى مرآة مجلوةلا تخفى من ملامحها شيئا ..

ثم تبدأ من جديد فى تــكوينشخصية لها ، عاقــلة ، عاملة نامية . وتبعة ذلك كله علينــاوحدنا .. لن يصنعنا أحـــد سوانا ، فلنصنع لأنفسنا ـ نحنالشعب ـ شخصيةقوامها القوى الاجتماعية بعد تصـــحيحهاوتنقيتها .

***

هذا هو الطريق .

وهناك حقيقة جديرة بالتذكروهى أن الطريق الوحيـــد لأن ننهض .. هو أن نوجد ..

ووجود الشعب ـ معنــــاهوجود قواه ، أو بتعبير آخر ـ وجود قواته الاجتماعية علىحالتمكنها من امداده بالطاقةوالحياة

لقد تحدثنا عن الحرية . ولماكانت الحرية تضن بنفسها على الذين لا يستحقونها ، فقد صارلزاما علينا أن نبحث عن المقومات التى تجعلنا لها اهلا .. والتىتجعل لناقبل ذلكشخصيةسوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتمــلأ فراغها فىالحياة ـــ وهذهالمقومات والعناصرهى ـ القوىالاجتماعيةالتى لهــا من الحتمية والفــائدة مايجعلها جديرة بالعناية والعملمن اجل حيازتها .

ينقل الاستاذ العقاد فى كتابه« فلاسفة الحكم » عنالفيلسوف

« جايتا تومسكا » هذه العبارة الجليلة ..

« ان الخير لا يتحقق فى الطبقة الحاكمة الا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية

« والحصانة الشرعية هى الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية .. »

***

اذن فالقوات الاجتماعية هى السيف المعنوى الذى يلاقى الفساد ويتحداه ..

واذا كانت قوانا هذه التى سنتحدث عنها ــ تبدو اليوم سيفا متقاصرا ، فلنعمل بوصية الاسبرطى الذى قلد ابنه سيفا، فهزه الغلام فى قبضته ، وقال :

ــ يا أبت . هذا السيف قصير

فأجابه ابوه : تقدم به خطوة واحدة فسيصير طويلا ..!

فلنتقدم بقوانا خطوة ، مؤمنين بأن الظروف كائنة ما كانت لا تستطيع أن تعمل ضدنا على صورة شاملة ، ودائمة ــ الا اذا أردنا نحن ذلك .. وأن ما بنا من ضعف ليس علاجه مضاعفة أسبابه ، وارباء مقوماته .. والضمور الماثل فى قواتنا الاجتماعية يتطلب منا أن ننقل إليها من دمائنا لتنتعش .. لاأن نمتص ما بقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج ألوان لوحاتك زاهية الى هذا الحد ..؟

فأجاب : انى أخلطها بدمى..!

فلنخلط قوانا بدمائنا ــ أى لنؤازرها بكل ما نستطيعه من اخلاص وانصاف وانماء . ولنذكر مرة أخرى ــ أن حقوقنا، كشعب ــ وأن الامم فى نضالها الموصول، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالخبرة والتجربة مزية الاقتناع بنفسها ، واحترام

العناصر المكونة لشخصيتها .. فاذا فقدنا هـــذه المزية اليوم ، وسخرنا قوانا الاجتماعية لغيرصالحنا ، فقـــد تودع منا .. وليرحمنا الله ..!

والقوى الاجتماعيـــة كثيرة ـ ولكننا نركز الحديث عن أهمها، وأكثرها اتصـــالا بقضـــيتنا ،وفاعلية فى حاضرنا ومستقبلنا ـ وهى :

ا ـ القانون ..

ب ـ الصحافة ..

ج ـ الاحزاب ..

د ـ القيم والمعايير

ولنتحدث عنها واحدة واحدة

ا ـ القانون ..

القصد .. والشمول

اول القوى الاجتماعيـــة التىتكون منها شخصية الشـــعب قانونه .

والقانون حين تكون النزاهـــةوالقصد لحمته وسداه ـ فانه يصير مثابة الامة وأمنها ،وعامل رقى وتقدم فيها. اما اذا تجانف لهوى وعدوان ، فانه يكون آفةالامة وكارثتها الماحقة ، ويحـــق عليه ذلك المثل الاسبانى الطريف

ـ أذاهب انت الى القـــانونلتشكو اليه سرقة شاتك ..؟

ـ حسن .. ستعود ، وقـــدسرقت بقرتك ايضا ..!

والقانون لكى تتم نعمته علىالناس يجب ـ فى نظرنا ـ أن يلتزمأمرين ـ القصد ،والشمول

اما القصد ـ فيقتضـــينا الانسرف فى وضع القوانين ، لأنها

غالبا ما تكون على حساب الحرية بل وعلى حساب النظام الذى وضع لحمايته .

وانا لنرجو أن يجد حكامنا جميعا ـ الشجاعة التى تحفزهم الى الاعتراف بأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وعلينا فى اصدار القوانين ، ولعلهم قد فاتهم أن قليلا من القوانين نطيقه ـ خير من كثير نتبرم به ، ونحقد عليه .. وفاتهم ايضا أن القانون ليس الوسيلة الوحيدة لتربية الشعوب ـ بل لعله آخر الوسائل جميعا .

ولنضرب لذلك مثلا :

منذ شهرين تقريبا قامت بمصر حركة اضرابات واسعة. حتى لقد أضرب الازهر اضرابا اجماعيا اشترك فيه شيخ الازهر وجماعة كبار العلماء .. فرأت الحكومة أن تعالج هذه الحركات بقانون يزجرها ، ويفتح أبواب السجون للمضربين، والمحرضين

وفى فبراير الماضى سنة ١٩٥١ ـ اضرب سبعون ألف عامل فى جنوب بلجيكا ـ كما نشرت الاهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ ـ ٢ ـ وطالبوا برفع أجورهم ٥ ٪ ، فلم تستصدر الحكومة قانونا مماثلا للقانون الذى أصدرناه ـ بل اجابت مطالب العمال .. !

وفى نفس ذلك الحين ، أوقبله بقليل . اضرب عمال السكك الحديدية بأمريكا ...اضربوا وجيشهم المحارب فى كوريا يتدحرج فى مجاهلها ،ويقاتل ، ويتلقى الضربات الشداد مما يجعل الاضراب حالئذ جريمة وخيانة ـ فماذا فعل ترومان.؟

تجيبنا جريدتا الاهرام والمصرى بتاريخ ١٩٥١/٢/٩ « ان المضربين حنثوا فى كلمتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية عدم الاضراب .. كما لو كانوا حفنة من الروس » ..!

هذه هى النكتة المرحة التى استقبل بها « ترومان » الاضراب والمضربين، ونقلتها عنه صحافتنا

وماذا فعل أيضا ..؟

عندما ازداد الاضراب اتساعاوخطرا ، أمر بفصل الذين لا يعودون الى أعمالهم – ولكنه قبل ذلك أمر برفع اجورهم فورا .. بل وجعل الزيادة الجديدة رجعية من عام ١٩٤٨ !

أفلم يكن « ترومان » قادراعلى تحريم الاضراب بقانون ؟

نعم – وكذلكم كانت بلجيكا قادرة .. ولكن مثل هذا القانون يعتبر تحديا لكرامة الشعب ،واهدارا لحريته ، وهو أمر لا يقدر عليه « ترومان » ولوأوتى بسطة فى الحكم .. وبسطة فى النفوذ ..!

نحن لا نشجع الاضرابات ..وليس هناك فى عالم العقلاء من يشجعها – فهى تشل حركة الامة ، وتهدر من عمرها وقتا نفيسا بلا انتاج ولا عمل ..

ولكننا نرفض أيضا ، أن نعامل معاملة العبيد الذين تشهر دائما فى وجوههم السياط ..!

وثقوا أن هذا السرف فى التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون اليها آنئذ نظرة فيها مقت وعداوة

ونحن حريصون على كرامة القانون وسيادته حين ندعو الى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للمجتمع فرصة حبه واحترامه. فالاسراف فيها فوق انه يصورنا أمام العالم أمة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يبذر فى النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع الى التحايل عليها – واذا تكونت فينا عادة التحايل ، فقد فقدنا كل أمل فى امتثال القانون ولو كان عادلا وفاضلا ..

أو يظن الحاكمون أن القوانين على كل شيء قادرة ..؟

فلنأخذ العبرة من قانون الاضراب الاخير .. لقد توعد بالعقوبة المحرضين فهل اختفى التحريض ..؟

كلا ـ فقـــد نشرت جريدةالاهرام بعد صدوره بيومين أو ثلاثة، وبخط بارز مثير «سبعون ألف عامل يضربون » وســاقت اخبار الاضراب البلجيكي باسلوب فيه اغراء كثير ..

وكتبت كذلك « اخبار اليوم» على أثر صدور القـانون بعنوان « الازهر يواجه مشكلة جديدة»!

وصاغت الخبر صياغة محرضة مشعلة دون أن يستطيع القانون معها حسابا ـ فقالت :

« .. وسيترتب على ذلـك حرمان ١٢٠٠ متخصـــص من الامل فى الترقى الى الكليات ..وقد علمنا ان هـــذا الموضوع سيثير أزمة جديدة فى الازهر»!!

ان هــــذه الـــكلمات مثيرة للازهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على ســمع القانون وبصره ثم لم يملك ازاءها شيئا .

ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو فى المعارضة. فعندما وقف صـــدقى باشـــا بمجلس الشيوخ فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافـــع عن تصرفه فى الغاء جريدة « الوفد المصرى» قال : انهـــا تدعو الى الثورة بطرق ملتوية وتلا منها هذه الفقرة:

«ان البلاد فى ثورة ، والثورة لن تخمد مادام فى الشعب المصرى دم يجرى ، او عرق ينبض ..ـ تنتهى اليوم المهلة التى طلبها صدقى باشا من وفد الطلبـــة حين قابلوه وطلبوا منه مطالبهم القومية .. ترى ما الذى اعده صدقى باشا وقد أجابه الطلبة الى رغبته .. لقد انتهت المدة.. فما ذا فعل .. ؟ ! »

***

ان القانون فى بلاد الاحـرار خادم عاقل .. وفى بلاد العبيد سيد مستبد .. وليس يكفى ان نزعم اننا أحرار ، فللحرية سماتها ، وعلاماتها ..

ولقد قال حكيم : « اورونى قوانين امة من الامم، وأنا ادلكم

على نصيبها من العظمــة ، او الانحطاط ..

وهذا حق .. حق جدا .. لان الدولة التى تصاب باسهال تشريعى تكون دولة غيرطبيعية، ودولة عاجزة .. وهى لاتلبث حتى تســتمرىء هذه العــادة الرديئــة ، فتصنع كما صنع الحاكم بأمر الله .. حين وضع القانون فى خدمة « الملوخية » يبيحها أول النهار ، ويحرمها آخره ..!

وكثيرا ما تجىء هذه القوانين مخالفة للدســتور ، فى نصه وروحه .. وكثيرا ماتكون مرنة لا ترديد لامس . . فتفسره السلطة التنفيذية تفسيرات مردية . . .

قال مثــل هذا القول نواب محترمون فى جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ ـ وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديدا تعدل به نصوص القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٦، الخاصة بمعاقبــة من يحبــذ أو يروج المذاهب التى ترمى الى تغيــير مبادىء الدســتور الاساسية أو النظم الاســاسـية للهيئــــة الاجتماعية بالعنف ، اوالارهاب اوبأية وسيلة أخرى غيرمشروعة ـ وارادت الحكومة يومئذ ان تفسح دائرة هذه المادة باضافة المواد ـ ٩٨ أ ، ب ، ج ، د هـ ، التى أضيفت فعلا ..

فوقف بعض النواب صارخين . . محذرين من عواقب هذا الافراط ـ ولا من يسمع أو يعتبر .! ومع هذه الاضافات الزاجرة وجــدنا النشاط الذى وضعت تلك المواد لمطاردته ينمو وينتشر .. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس .؟

والآن لنستمع الى كلمــات هؤلاء النواب المحترمين (١)

***

حضرة النائب المحترم الاستاذ حنفى الشريف ، قال :

«انه يعارض مبدأ هذا التشريع لانه لو كان فى مصر حزب شيوعى

---

(١) مضابط مجلس النواب جلسة ١٩٤٨/٤/٢١

يعمل علنا ، لكان فى وسع الحكومة ان تحكم الرقابة على اعضائه ، واعماله ، وصحفه.. ثم قال :

« ان قيام هذه القوانين قدادى الى قيام الخلايا السرية التى تعمل الحكومة جاهدة للقضاء عليها ــ وقال :

«انه يطالب الحكومة بان تدع حزبا شيوعيا ينشأ فى مصر ، فان ذلك أبيح فى انجلترا وفرنسا وايطاليا .. وان هذه المذاهب تدرس فى الجامعة ، ويمتحن فيها الطلبة ، وقد يكون من بينهم من أقتنع بها واعتنقها ، وان محاربة هذه المذاهب تجعل الجمهور يظن انها صالحة .. لكن الحرية لو تركت .. تنظم نفسها .. »

***

وقال النائب المحترم على بك راتب :

« انه يوافق الحكومة كل الموافقة فى ان تفرض ما تشاء من عقوبات على من يحاولون بالقوة او الارهاب تغيير اصول الحكم .. لكنه لايوافقها مطلقا على الحد من حرية الذى يفكر، او يكتب .. »

***

وقال النائب المحترم فكرى بك اباظه «باشا» :

«ان التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية التى ارتبطت مصر بها ــ وانه يتعارض مع احكام المواد السابعة، والرابعة عشرة ، والعشرين ، والسادسة والخمسين بعد المائة من الدستور .. »

ومضى يتساءل : ماذا يعنى المشروع المعروض بمحاولة سيطرة طبقة على اخرى .. وما هذه الطبقة ..

أهى الارستقراطية .. ام الوسطى ، أم الشعبية ؟!.»

***

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميعه - وهى مرونة ضد المتهم غالبا ، خاصة فيما يتعلق بالحرية، اذكر تجربة شخصية لى

فقد اتهمت فى كتاب سابق بتهم عدة ...

وكان منها الدعوة للانتقاض على الدستور ، وتغيير المبادىء الاساسية للهيئة الاجتماعية

وكان تكييف الاتهام فى التحقيق على هذا النحو ..

اننى ، وان لم أكن قد دعوت الى استعمال القوة .. الا اننى روجت لمذهب ، قام فى بلاد اخرى بالقوة .. !

ياسبحان الله .. !

اذن ، فالترويج للاسلام جريمة لانه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..

والترويج للاستقلال جريمة لانه لا ينال الا بالقوة ..

والترويج للحرية جريمة لانها انتصرت فى بلاد اخرى بالقوة .. !

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى اعقاب المواطنين لتنال منهم شر منال .

وكل جائع يقول اليوم : ياكبدى . ! شيوعى

وكل كاتب مخلص .. شيوعى

وكل ذى شكاية ، ومظلوم .. شيوعى

وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الامس ..

وحكام الامس ، شيوعيون فى نظر حكام اليوم . .

وكلا الفريقين ، شيوعى فى نظر حكام الغد ..

والجانب المضحك فى هذه المأساة يجعلنا اقرب الناس شبها بجحا .. لقد اراد ان يتخلص من مضايقة بعض الغلمان له ، فدلهم على عرس موهوم . . ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق

يعدو وراء الظلمة نحو اكذوبته التي صدقها .. !

اننا ايضا ، نضع القوانين أحيانا لنلتمس بها للابرياء التهم والعيوب .. ثم نعود ، فنصدق انهم حقا متهمون .. ؟!

والجانب المزعج فيها .. ان كل حكومة تلى الحكم تشرع القوانين التي تحميها، وتبقيها .. كأنها من الخالدين .. ! وتتعمد ان تجعل لكل قانون بابا كبيرا يتسع لمدخل كل من تستضيفه .. حيث يفضي الى دهاليز من ورائها السجون والظلمات .. !

ومثل ذلك ، وما اكثر الامثال ـ مانجده في مؤخرة المادة ۹۸ أ ، ب ، ج ، د ، هـ ـ وهو :

« .. متى كان استعمال القوة او الارهاب او اية وسيلة اخرى غير مشروعة ملحوظا في ذلك .. »

اما القوة والارهاب ، فحسن هذا .. ولكن ما مدلول عبارة « او اية وسيلة اخرى غير مشروعة » .. ؟

ان كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة ، والبوليس معها ان يلبساها لباس اللا مشروعية والجريمة . ثم يقدماها للقضاء بهذا الوصف الزنيم ..

وكيما تزداد المسألة وضوحا نستشهد ايضا بالمادة (۱۷٦) عقوبات ..

وهي « يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، وبغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ، ولا تزيد عن مائة جنيه ـ او باحدى هاتين العقوبتين . كل من حرض على بغض طائفة او طوائف من الناس، او على الازدراء بها .. الخ »

ان الغموض الشائع في عبارة « بغض طائفة ، او طوائف من الناس .. » غموض مقصود .. وهذه العبارة على ضآلتها بئر لا قاع له يستطيع ان يبتلع في لا نهائيته الشعب كله ثم ينادي في سعار وجشع : هل من مزيد .؟

بغض طائفة من الناس .. اى طائفة تمنحونها هذه الحماية .؟

هبوا اللصوص الفوا لانفسهم نقابة .. ودعونا مثلما دعا الله الى بغضهم ــ انكون آثمين .. ؟

سيقولون : لا .. ومن يدرى ــ ربما تكون نعم .. !

وهبونا ازدرينا روح الجشع السائب المتبدى فى تصرفات آلهة الاقطاع الذين لا يسهمون مع الحكومة ولا مع الشعب فى تحقيق آماله ــ أنكون آثمين .. ؟

سيقولون : نعم .. !

لقد حدث هذا فعلا .. وانى لاعرف كاتبا ــ لعله انا ــ ارادت النيابة ان تفتل له من هذه المادة قيدا غليظا .. ووجهت اليه تهمة التحريض على بغض طائفة من الناس .. ثم تبين ان هذه الطائفة هم الاقطاعيون .. !

اى فارق بين رجل يسرق حذاء .. وآخر يسرق تفتيشا .؟

اى فارق بين رجل يقتل فردا .. ورجل يقتل شعبا . ؟

بل استغفر الله .. فان الفارق عظيم جد عظيم ..

اننا نريد ان نحب قوانيننا ،ونحترمها . لانها تمثل العقدة الحيوية فى شخصية الشعب ،والطريق لهذا ان تكون مقتصدة واضحة تشرف الحكومة التى تضعها ، والشعب الذى يلتزمها.

واسمعوا ما يقوله « توماس بين » :

« عندما تستطيع دولة ان تقول ان فقرائى سعداء لايشكون عسرا ..

« وسجونى تصطفق ابوابها ــ الا تجد من تؤويه ..

« وقوانينى رفيقة لا تكلف المواطنين حرجا

« عندئذ فقط تستطيع ان تفاخر بدستورها وحكومتها ..»

الشمول بعد القصد .

واذا انتهينا من الحديث عن وجوب الاعتدال والقصد فى قوانيننا ـ مضينا متحدثين عن وجوب شمولها ـ وبسط نفوذها ..

لقد وفد على عمر بن العزيز وفد بعض البلاد ، فسألهم :

كيف تركتم الناس .. ؟

قالوا : تركنا فقيرهم موفورا ، وعاتيهم مقهورا ، ومظلومهم منصورا ..

فقال : الحمد لله ـ لو لم تتم واحدة من هذه الا بعضو من اعضائى لكان عندى مرضيا .. !

بهذا الروح الكبير حمى ابن عبد العزيز سلطة القانون من اصحاب النفوذ ، والمؤهلات الخاصة .. !

ورعى الذئب فى عهده مع الغنم .. دون ان يمسها منه جنف او عدوان .

وحمل عمر بن الخطاب عصاه فى يده ورفعها الى اعلى ..

ثم سمى الله تعالى .. وهوى بها على ظهر ابنه وولده وقال : أفى كل يوم تاكل اللحم ، والناس جياع .. ؟

كل كما يأكل ابوك .. يوما خبزا وزيتا .. ويوما خبزا وملحا .. ويوما خبزا وماء .. !

ووقف ابو بكر يوم ولى امر الناس ، ووقف التاريخ تجاهه يتلقى من بين شفتيه هذا القسطاس :

« القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ـ والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له »

فيا ايها الذين تلوذون بالاسلام عندما تصرخ الامعاء الجائعة ..

ويا أيها الذين تحتمون به عندما تتململ الشعوب الخاضعة

ويا أيها الذين تتظاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .

هذا ـ هو الاسلام .

وهـذا هو احترام رجاله للقانون

ولقد استمعنا من قبل الى الملك وهو يلقى على وزيره خطابه التقليدى . ايام المصريين القدماء فيقول له :

« اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ٠٠ واعلم ان المحاباة بغيضة الى الاله ٠٠ وانظر الى المقربين للملك ، نظرتك الى البعيدين عن بيته ٠٠ »

ان سيادة القانون ضرورية لسيادة الامة ـ والويل لمجتمع ينكمش قانونه امام عليته وكباره عندئذ تشيع فى شخصيته الفوضى والاضمحلال والاستهتار

وانا لنمر فيما نقرأ عن الدول الاخرى بمشاهد تبهر الابصار ٠

حدث يوما ـ وهذه قصة ترويها أخبار اليوم بتاريخ ٥/٧ سنة ١٩٤٧ ـ أن تزوجت بنت ستالين، ورجت أباها أن يهيىء لها سكنا تستأجره ، فرفض حتى يحين دورها ـ كبنت أى كناس يكنس الشارع ويحمل القمام . . !

وعلم بعض الوزراء ، فجمعوا المجلس سرا ،وقرروا تسليم بنت المارشال ستالين شقة ذات غرف ثلاث ٠٠ !

**

وحدث أيضا ـ أن عاد ابنه الاصغر من ميدان القتال مزهوا بالنصر ، فانطلق بين حانات موسكو ومراقصها مفتونا بشبابه وحسبه ٠٠ فأصدر « بريا » مدير البوليس أمره باقصائه فورا الى قرية نائية لمدة عام كامل ٠ ٠

وسمع « بريا » أن الفتى ساخط على هذا القرار ، فاستدعاه وقال له : — لقد أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيدا انى لو أحلت الامر الى أبيك ماكان جزاؤك أقل من النفى خمس سنوات كاملة .. !

* *

ويوم أحب ملك الانجليز .. « مسز شمبسون » .

اى ذنب جناه حين احب . !

لكن لبلاده تقاليد أقدس فى قلوبهم من القانون ..

ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها .. ؟

لا — انه لايستطيع .. لانه يحترمها .. ولقد انحنى لها .. وترك عرشا يطل من فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يثخن فى أرض مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير ..

لقد احترم فى اللحظة المغرية الحازمة أمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد .

وماذا أقول .. ؟

ان التاريخ مفعم بالامثال يضربها للناس .

ولكن أكثرهم لايعقلون ..

* *

دعوا القانون يسد ويسيطر

فاذا سرق الفقير رغيفا وادخل السجن ..

وسرق الكبير دولة .. فليدخل السجن أيضا ..

اما ان ننحنى أمام اثمه وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك اذا وهب — لاتسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء — فقف على حد الادب

فهذا هو — سوء الادب . !

لقد علم عمر بن الخطاب ان عمروبن العاص داهية العــرب ومن وجهاء قريش وكبرائها ـ قد فشت .له فاشية من الابل والمال ‥ فأرســل وراءه مــن يحاسبه الحســـاب العســـير ويقاسمه جميــع ثروته ـ حتى اذا انتهى منها جميعا قال :

ـ أين نعلك ياعمرو ‥ ؟

فأجاب عمرو مبهوتا ـ لم ؟‥ فقال محمد بن مسلمة رسول عمر : ـ

ـ لنا واحدة ،ولك واحدة‥!

لم يقف جاه عمرو ، ولادهاؤه ولاقوته دون القانون وهو في طريقــه اليه ـ بل بلغ منه المبلغ الذى يريد

***

ان من الخير أن نعترف في شجاعة بمحنة القانون في بلادنا ولكن الحق ان الحكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة ـ بل نحن معها ‥ ونحن قبلها ‥

ففى سلم السلطة التنفيذية من أدنى ـ يوجد كثيرون من الموظفين الذين لايحترمون أقــل احترام ـ التزاماتهم ازاء الدولة والقانون والشعبــ وهم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .

أولئك الذين يعطلون تنفيذ الاحكام من أجل رشوة حرام‥

وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية وجانيها من أجل دراهم معدودات ‥

وأولئــك الذين يحــــرفون القانون عــن مواضــــعه تحقيقا لغرض‥ أو استجابة لشهوة‥!

فلنؤد واجباتنا نحو القانون فى ذمة وشرف وليبذل الحاكمون من ذوات أنفسهم مزيد احترام للقــوانين ، فيعمموا تطبيقهــا . ويعلنوا سيادتها ‥ ومزيدا من الفهم لحــكمة مشروعيتها ، فــلا يسرفوا فيها .

وليمكنوها من سكان القصور، وأبناء الاكرمين .

ب ـ الصحافة ..

« ... وعندما أغلقت بابي وراء رئيس الوزراء ، دق جرس التليفون . وكان المتحدث هو اللورد « بيفر بروك » صاحب جريدة الديلى اكسبريس ،وقبل ان أروى له مادار بيني وبين المستر بلدوين قال لى :

ـ لقد ضاع الامل الاخير في المحافظة على هدوء صحف لندن لقد قرر رؤساء تحرير الصحف أن ينشروا تفصيلات الازمة التي بينك وبين الحكومة . .

« ووضعت السماعة . .. وشعرت بأن الدنيا قد بدأت تظلم فى وجهى .. ولما نظرت الى ناحية مطابع « فليت ستريت» شعرت كأن سحبا سوداتخرج من هذه المطابع ، وتتجه الى قصرى . .

« لقد كان يوما سيئا .. !

« وقد كنت أتوقع ان تتحدث الصحف عن الازمة فى صراحة مؤلمة . ولكنى لما قرأتها فى صباح اليوم التالى شعرت بذهول ثم باشمئزاز . آ

« هل يمكن أن يكون هذا الذى يتحدثون عنه هو الملك . أو انه « هلفوت » عادى .. ؟

« حقا ان الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن تهدم . . » !

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبدأ بها حديثنا عن الصحافة ـ والصحافة هى أعصاب الوعى فى أمتها . . . وهى من أهم ان لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية ..

وان لها حقوقا ، وعليها واجبات .

فأول حقوقها ـ الحرية الكاملة

ا ـ حرية الانباء . وتشمل حرية التلقى ، وحرية الاداء .

ج ـ حرية الرأى والنقـد والمعارضة . .

ومن ســـوء حظ مصر ان صحافتها لا تتمـع بمـا يجب من حرية . . وحكوماتنـا فى مبـاراة هائلة نحو مضايقتهـا وتكميمها . .

وحين نفاضل بين عهد وعهد نجد أقومهـا طريقـة هو الذى يهبط فيه منســوب الاضطهاد

وليس الذى يبرأ برءا كاملا من هذه الآفة الخبيثة .

فى يوم ١٩٥٠/٩/١٧ نشرت جريدة المصرى حديثا لمعالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا .. ؟

بين عدد مرات المصـادرة فى عهده ، وعددها فى غير عهده من العهود ـ فقال :

« بلغ عدد القضـايا الصحفية فى سنة ١٩٤٦ ـ ٢١٣ ـ قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين ـ ٢٧٦٥ ـ جنيهـا . .

« وحدث ان جريدة واحـدة هى البلاغ ، تعرضت خلال أربعة اشهر لاربعـة عشر تحقيقـا ، وحبس عشرة من الصـحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصرى بشأن الاقتراح الكولمبى . . »

« وفى عام ١٩٤٥ ، ابان الاحكام العرفيـة ـ بلغ عـدد القضـايا الصحفية فى ثلاثة اشـهر فقط هى ـ اكتـوبر ، ونوفمبـر ، وديسمبر ـ ٣٧ ـ قضية صحفية وجملة الكفالات ـ ٤٠٠ ـ جنيها ، على الرغـم من وجود الرقبـاء الذين كانوا يحـذفون كثيرا كما يشاءون . . »

ثم ذكر معاليه ـ عدد القضايا الصحفية فى سـبعة اشـهر من عهده وهى المدة الواقعة بين اول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو سـنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية . . !

لا جرم ان الارقام التى ساقهامعاليه خاصة بالسنوات الماضية أرقام بشعة مزلزلة . .

ولكن ما دلالة هذه الموازنة فىمعناها العميق .. ؟

دلالتها ان مضايقة الصحافة ،وابسالها ، ومصادرة حريتها قائمة فى هذا العهد وفى غيره منعهود .

وان الفارق بين عهد وآخر ـماثل فقط فى الكم والعدد . .

ونحن نعلم ان العدد فى هذاالامر ، مسألة زمن . .

فاذا كان محصول الحكومةالقائمة فى سبعة اشهر (٣٢) قضية ـ فكم يكون المحصول فىخمسة اعوام . ؟

لقد ذكر معاليه ان مجموعالكفالات التى دفعتها الصحف المضطهدة عام ١٩٤٧ هو(٢٢٠٠) جنيها .

فما قوله ، دام فضله ـ فى اندارا واحدة من دور الصحف هى « دار أخبار اليوم » قد بلغما دفعته وحدها من كفالات ـ ١٢٥٠ ـ جنيها فى اسابيعمعدودة .. ؟!

اننا بهذا النقاش لا نهدف الىاحراج وزير ، اوالتشهير بحكومة معينة .. فنحن من بداءة رحلتنافى هذا الكتاب نلقى اللوم دائما على روح الحكم وسلائقهوطرائقه . . اما الاشخاص فلا .. لانهم زائلون

أين تقدير حكوماتنا للصحافة.. من تقدير ذلك الملك العظيم السابق الذى شعر كأن سحباسوداء تخرج من مطابع الصحافة وتتجه نحو قصره .. ؟

ثم أين احترام صحافتنالواجبها ، ولقارئها .. ؟

ان للصحافة فى توجيه الراىالعام اثرها البليغ ، فهى قادرة على هدايته وعلى اضلاله . .وبقدر ما تقدم له من عون ، تقدم لنفسها ايضا ـ فكلاهماللآخر قوة ومساك ..

ولعل صحافتنا الموقرة تجد من الشجاعة ما تصغى به لهذه الحقيقة ..

وهى ـ ان الاخلاق التجارية تسيطر عليها اكثر مما يسيطر الواجب الادبى .. !

وقد يكون عذرها حاجتها المطردة الى الربح والمال . .

بيد ان ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ بالمعنويات الفاضلة التى تجعل منها فى بلادها نبوة هادية ..

ان الروح التجارى هو الذى يدفع الصحافة احيانا الى الاسراف الشديد فى الولاء ، لتظفر بقلب الحكومة وجيبها ..

وهو الذى يدفعها حينا آخر الى التطرف فى الشنآن ، لتظفر بعواطف الجماهير التى تسارع بحكم طبيعتها الى البغض أكثر مما تسارع الى الحب ..

وامامى الآن ركام هائل من الصحف المملوءة بالمتناقضات وسأمد يدى نيابة عنك ، واتناول عفو الصدفة صحيفة منها ـ اى صحيفة .. ثم نقرأ فيها معا .. ونبحث بعد ذلك عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر فى عهد آخر ـ ولننظر ..

« .. واذا كان المنادون بالحريات ـ يريدون أن تنصرف الحكومة عن واجبها فى صيانة النظام ، ليعبثوا به ، ويسخروا بعض « الصعاليك والمفتونين » لتنفيذ اغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى .. فليبحثوا لهم من « لعبة » اخرى قبل ان ينفض « السرك » وينصرف عنهم المتفرجون »

***

اقرأتم هذه السطور ..؟

اقرأوا مرة اخرى كلاما آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد ..

« .. افتحوا أبواب السجون التى ملئت بشبابنا المثقف متهما بالشيوعية .. والله يعلم انه ليس في مصر شيوعيون سوى أولئك الذين يقضون حياتهم بين سهرات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس .. »

ان الحرية – هى .. هى – لم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرســـوم .. فما سر التناقض فيما كتبته الصحيفة. وفيما تكتبه زميلاتها الكريمات.؟

ان الاتجاه النفسى .. تغـير فتغير معه كل شيء..والجماهير القارئة هى التى تدفع ثمن هذا العبث من أعصابها ، وسكينتها، ونهاها ..

اننا بالاشواق الى ذلك اليوم الذى نســـمع فيه عن صحفى مصرى – طرق أحد الكبراء بابه.. وقدم له « شيكا » بمائة الف جنيــه مساوما به على مصالح الشعب .. فيصنع كما صنع الصحفى الانجلبزى .. ويدعو حاجبه لاصطحاب الكبير المحترم الى الباب – لأنه يجهل الطريق.!

***

ان الصحافــة هى الرئة التى تتنفس بها الشعوب..وتصوروا لو أن رجلا ذا جاه ونفوذ ومال اســـتأجر رئتى أنا – لتتنفس لحسابه ، لا لحسابى ، كم لحظة من العمر أستطيع بعـــدها أن اعيش ..

لقد كان «امرسون » صادقا حين قال : الصحافة الحرة رسول من قبل الله للشعب .

نعم – انها لكذلك ..

فهى التـــى تكشف عن بصره الغشاء ، فيرى ..

وتزيح عن آذانه الوقـــر ، فيسمع ..

وتمزق عن وعيه الحجب ..فيدرك كل شيء ويعيه .. انها

القوة التى تحيـــا بها الامة ..وتموت أيضا ..!

ونحن ندعوها الى العمل وفق تبعات هذه المكانة السامية التى بوأتها الحضارة اياه .

ج ـ الاحزاب ..

التعدد .. لا الوحدانية .

عنـدما يغم الطريق امام امة من الامم ، وتتغشـاها غواشى المسكنـة والذل ـ وتكون قـد عاشت أمدا طويلا فى قبضـة الجبارين ، فانها تحن دائمـا ، وتنزع الى شيء غير قليل مـن التخضع والتخشع .. والارتماء فى أحضان سيد واحد .. ليس له صنو ولا شريك .

وهذه هى العقبة الـكأداء التى تعانيها الديموقراطيـة وهى فى طريقها الى ضمائر هذا الطراز من الجماعات .

ان هذا الضمير لا يزال يبحث عن جبار جديد .. بعـد أن اصطنع له اسما آخر يهـواه ويطيـقه ـ كأن يسميه مثلا ـ الحزب الواحد ..المستبد العادل ..الشورى الغير ملزمة.. ولعل الشرق كله لا يزال يردد فى ايمان ونشوة الكلمة المعزوة الى السيد جمال الدين الافغانى : «لن يصلح الشرق الا مستبد عادل »

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة ـ وقد تكون من صنع أحـد المعجبين به ، وبالمستبد العادل ..

اصحيح هذا ..؟

أيمكن أن يكون الحاكم مستبدا وعادلا معا ..؟

كنا نقرأ فى الاحاديث المنسوبة الى الرسول ، وهى غير صحيحة ـ أن لله ملكا نصفه من ثلج ، ونصفه من نار .. فلا الثلج يطفىء النار ، ولا النـار تذيب الثلج ..!

اذا كان فى الامكان وجـــودمستبد عادل ، فهو هذا ..!

نريد أن نقــول لجمــــاهيرناالحبيبة ـ هذا هراء ..!

والرجل الواحد .. والحزبالواحد ـ استبداد وافكودمار.

لقد آمنت قبلا بالرجلالواحدوبالحزب الواحد .. أيام كنت أؤدى للاخرين تحية العوام ،كمايقول « اسكار وايلد » ـ التقليد تحية العوام لاصحاب العبقرية.اديت هذه التحية يوما ..لاناس طيبين ـ ليسوا على أى حـالمتهمين بالعبقرية .. فلما بدأت أفكر لنفسى وعيتشيئا جديدا.

واستطيع الآن ان اتصور ـوتستطيع أنت أن تتخيل معى ساعة جلسنا اثر صــلاة الفجرنستمع لموعظة ـ وكنت يومئذ أومن بالرجل الواحد فى جماعةدينية .. جلس الشيخ يعظ ـ فقال :

من قال لشيخه لم ..؟ فقدحرم بركته .

قلتللشيخ يومها : انأصحابالرسول كانوا يقــولون له : لم ـ ولماذا ..؟

فاجاب: عندماتكونكاصحاب الرسول .. قل مثلهم ـ لم.؟

أجبتهأيضا ـ والى انتبلغوا انتم منزلة الرسول . سنظل نقول لكم : لم ..؟

واشــهد ، وانا الآن اشرف على الحوادث من مكان بعيــد لا أتأثر فيه بشهوة ولا غرض ـ أن شيخنا ذاك .. صورة صادقة لكل رئيس جماعة ، اوحزب فى مصر .!

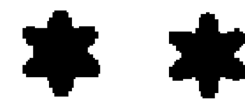
كلهم يؤمنــون بأنفسهم ولا يزيدون ..

ولو كان الصواب والســداد يقفان بجانب الرجل الواحد ، لكانا اذن من التفاهة والضآلة بحيث يــكفى لتحصيلهما عقل واحــد ، قد يكون مريضا أو موتورا ..

ان الدين يرفض حكم الرجل الواحد.. والدنيا له أكثر رفضا والحزب الواحد، كالحاكم الواحد. كلاهما شر، واستبداد وفي مصر خلق كثيرون يصرخون كلما تكاءدتهم الامور. ألغوا هذه الاحزاب

وهذا وهم عريض..! فالحقيقة أن ضعف الاحزاب، لاتعددها هو مأتى البلاء.

فاذا قيل: ان تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من فرقة وخلاف.. نجيب بأن التعدد فى أحزاب دول كثيرة هو سبب قوتها وتفوقها، واذن فهو ليس مضعفا بذاته وطبيعته.. وعوامل الضعف والانحطاط آتية من اشياء أخرى سواه.. بيد اننا نيطها به للتفسير السيكلوجى الذى اسلفناه.. وهو حنين الامة التى طال انحناؤها للسيد الواحد، والحزب الواحد.!



لقد عصف الحزب الواحد بالمانيا.. وقصم ايطاليا.. وترك اليابان عبرة وأحاديث.. ولوت طبائع الأشياء زمام الاستبداد فى تركيا فتعددت فيها الاحزاب، ومضى الحزب الواحد الذى كان حاكما بوزر سيئاته، بل وحسناته!

ولاتضربوا لنا الامثال بروسيا.. فالعبرة بنهاية المطاف..

لطالما لهجنا ببركات الحزب الواحد المستبد فى المنيا النازية، وايطاليا الفاشية.. فاين ذهبا.؟

وروسيا بين أحد أمرين..

فاما أن تكون الحريات فيها سائدة مترعرعة. ومجالس الاتحاد فيها من القوة والنضج بحيث تؤدى دور الأحزاب المعارضة تمام الاداء.. وعندئذ لايحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا فى استبعاد بلوغ «السوفييت» هذا المنسوب الذى يرشحها للنهوض برسالات الاحزاب..

واما ان يكون حزبها الواحد مصمتا صخريا.. لاشيء معه، ولا معقب لحكمه .. وعندئذ ، فالمصير المدخر للحزب الواحد، وللشعب الذى يرتضيه، فى الانتظار

* *

يجب أن نعلم ان مصر لا يؤودها اختلاف احزابها .. بل تناحر هذه الاحزاب .. اما الخلافات فلا مفر منها ، وهى باقية فى الناس ما بقى لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة..- والخلاف الذى لايجاوز دائرته، ولايتعداها ينفع ولايضر . لانه الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الراى ، وكشف اللثام عن حقائق الاشياء

والذى يرهقنا بطغاوته ـ الخصومة لا الخلاف .

منذ اربعة اعوام نشرت صحفنا أنباء احدى جلسات مجلس العموم البريطاني ـ حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالعجز وبالعمل لتصفية الامبراطورية البريطانية -

فما كان جواب « بيفن » ـ ولعلها أقسى كلمات يستطيع أن يستعملها : الا أن قال :

« ليس فى بريطانيا من ينكر أن تشرشل هو عبقرى الحرب الذى كسب لبلادنا النصر ..

« ولكنه ـ وهذا عيبه ـ يستجيب أحيانا لنداء أغراضه الخاصة »

***

وصحيح ان هناك من الساسة والزعماء من يتهاترون. والعراك التاريخى الذى استعر بين دزرائيلي وغلادستون لايزال كأنه مشبوب الاوار .. ولكن الارض المشتركة بين الاحزاب جميعا مهما تختلف وهى ـ مصالح البلاد ـ لايمكن أن يفرط فيها حزب .. أو يساوم عليها من أجل الكيد والاغاظة لخصومه السياسيين

وليس معنى هـذه المقارنة اننا نتهم زعماءنا بالخيـانة . . لا ـ وانما نتهمهم بالضعف .. الضعف حين يتحابون. والضعف حين يتخاصمون . .

***

الم تسـمع يوما أن حكومة العمـال انتدبت تشرشل لبعض المهمات السياسية الخطيرة خارج البلاد . .؟

ان هذا لايمكن ان يحـدث في بلادنا أبدا . .

فالحزب الذى يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شيء . . ويرفض الافادة بمـا فى الاحزاب الاخرى من مواهب .. بل هو لايعترف بموهبة ولا ذكاء فى غير حزبه . .

ان حزبه وحده هو المتخـم بعشرات من أمثال بونابرت .. وعشرات من طـراز عمرو بن العاص ..!

***

ان الحزبية الرشيدة المتعددة من أهـم المقومات لشخصية الشعوب الحرة .

فلنغتبط بتعـدد الاحزاب عنـدنا ، ولا نجزع ..ولنطالبها باصـلاح ذات نفسها . ونفث روح النظام ، والديموقراطية ، والشرف فى كيانها .

وهذه مقترحاتنا : ـ

١ ـ **الرئاسـة للأصلح** ـ ان رئيس حـزب ما هو رئيس الحـكومة يوم يظفر حزبه بالأغلبية ـ لذلك نجد رئاسـة الحـزب ليست من مسائله الخاصة التى يحق له الاستئثار بها .. بل هى قبل ذلك من حق الشعب الذى قد يحكمـه هذا الرئيس يوما ما ..

ولهذا يجب ان يختار الرئيس عن وعـى وبصر . وان يكون الرجـل الذى تتمثل فيه قوة الحزب وقمـة نضوجه .. وان

يجدد اختياره .. أما الرئاسة مدى الحياة ، فهى ترادف الفساد مدى الحياة ..

***

٢ ــ افساح الطريق للاكفاء.. والاحزاب فى الامم الراقية .

مدارس تربى الشباب ، وتعده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين .. ولكنها عندنا «بورصات» للمضاربة والاقتناص .

وانه لشيء محزن ومخجل أن يكون النفاق جواز المرور والوصول فى جميع أحزابنا ــ فانت كلما كنت بعيداً من الفطنة تكون قريبا من الزعيم .. وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف الزعماء وهزالهم . . فرئيس الحزب اذا كان قزما ــ ابعد عن نفسه العمالقة حتى لاتنكشف عورته .. وتنفضح قماءته ..

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالتزلف والملق ، هم الذين توسد اليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى . .

فاذا أرادت الاحزاب ان تكون عامل بناء فى بلادها ، فلتفسح الطريق للاكفاء والصالحين فيها ــ والا انقلبت بؤرة تورد للأمة الميكروب والآفات .

***

٣ ــ المنهج ــ المنهج هو الحزب ــ وأحزابنا هذه ما مناهجها؟

انها تهتف بالجلاء ، والسودان ، والعدل الاجتماعى . فاذا أتيح لاحدها الحكم ــ توسل لكل هذه الاهداف بسياسة مرتجلة ، وسلوك مضطرب ــ مما يدل على أنه كان فقط يهتف مع الهاتفين ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه المستقل حيال مشاكل البلاد جميعا ..

ان فائدة المنهج للحزب لاتتمثل فقط فى انه سيكون دستوره يوم يحكم ــ بل أهم من هذا أنه يربط الحزب بالشعب رباطا وثيقا .. لان المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بالجماهير وتحسسه آلامها ــ وبحثه أخص شئونها . .

ان الارتجـــال افسد علينا حياتنا .. الارتجـال فى الحكم ، والارتجـــال فى المعارضة .. والمضحك ان احزابنا يقلد بعضها بعضا حتى فى الفشل ..! وهذا هو سر ما نجده من تشابه بين سلوكها جميعا .

ان ارقى مظهـــر لسياسة الحزب ـ هو خطاب العرش ـ الذى يعبر به الحـــزب الحاكم عن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقد سرت عبر خطب عرش كثيرة فى مضابط البرلمان . تكاد الفروق الدقيقة تنعدم بينها .. وقطع على ســـيرى ، صوت شيخ جليـل ، وجدته قائما فى احدى جلسات مجلس الشيوخ يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ـ يفسر نفس الظـاهرة ، ويندد بها .. فلنصغ له .. ان صاحب الدارادرى ..

ـ حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب : ـ

ـ حضرات الشيوخ المحترمين ـ خطاب العرش أســاس من الاسس الهـــامة فى الحياة الدستورية ، واو اتبعت الحكمة المقصـــودة منه ، لكان بناؤنا الدستورى الديمقـــراطى اقوى مما هو الآن بكثير ..

«امامى الآن جميـع خطابات العرش منـــذ سنة ١٩٢٤ الى سنة ١٩٤٥ ـ أظن ان عدد هذه الخطابات يبلغ حـــوالى الثلاثة والعشرين خطابا .. واذا قرأتم هذه الخطابات تجدونها جميعـا كأنها نسخة واحـدة من خطاب واحـــد ، مع بعض التعديل فى الالفاظ ـ لا فى الموضوع ـ بعكس الحال فى بريطانيا . اذ يمكن لأى عضـــو من حضراتكم ان يقرأ الخطاب ، فيقول : هـذا خطاب حكومة العمـــال ، أو حكومة المحافظين ، او حكومة الاحرار ..

« اذا كانت هـذه الخطابات لا تتغير فى عهـد من العهود ولا فى حكومة من الحـــكومات ، فما الداعى اذن لهذه الفرقة بيننا ، وهذا الخصام المتواصل ..؟!

«الواقع ياحضرات الشيـوخ المحترمين ان خطاب العرش بدأ أولا فى صفحتين ونصف صفحة وقد جاء فى هذا الخطاب القصير كل ماجـاء فى خطابات العرش الاخيرة ..

أما خطاب العرش الاخير ، فقد زاد الله فى حجمـه ، واصبح فى خمس وثلاثين صفحة ـ وكنت أعتقـد ان زيادة خطاب العرش من صفحتين ونصف صفحة الى خمس وثلاثين صفحة ـ اى بما يعـادل ١٤٠٠ ٪ ، قد يعود على البـلاد بخير ، لا بنسبة ١٤٠٠ ٪ ـ ولكن على الاقـل بنسبة ٧٠٠٪ ، أو ٦٠٠ فى المائة او حتى ١٠٠ فى المائة » (١)

***

اننا نفسر هـذه الظاهرة بالافلاس . افلاس الحـكومة ، وافلاس الاحزاب التـى تنشئها وتكونهـا ، من المناهج المرسومة والدراسات الواعية ..

٤ ـ <u>ديموقراطية الحـزب</u> ولكى نصحح شخصية الشعب ، يجب ان نصحح شخصية الحزب مادمنـا نرى الحياة الحزبية من اهم مقومـات الشخصية ـ شخصيـة الامة والدولة . وشخصيـة الحزب لا تكون صحيحة سـوية حتى تصطبغ بالديموقراطيـة الحقة . فهل أحزابنا كذلك ..؟

انهـا ـ وهذه هى الحقيقة ـ أندية سياسية تضم المترفين الى العاطلين ـ مع محترفى السياسة والكلام ..!

انها منصرفة ، بل عازفة عن الشعب ومشـاكله ـ مما أدى الى خلق جيـل جديد لا يؤمن بأحزابه ، ولا بزعمائه .. مع اننا فى أمس الحاجـة الى الايمان بأحزابنـا ، وبقادتنا . حتى

---

(١) مجموعة مضابط الانعقاد العادى الحادى والعشرين ص ٢١٥ .

لانقسم على انفسنـــا ، وحتى نتطور ــ دون ان نتنكر ــلمحاسن ماضينا .

يا أيهــا الزعماء ــ تعرفوا الى الشعب .. وامشـــــوا معه فى الاسواق ان كنتم تريدون لكم ، وله البقاء ..!

لقد سبقتموه فى المعيشـــة سبقا بعيدا .. فعجزتم عن ان تحسوا احساسه ، وتشعروا بشعوره . ومهما تحاولوا اليوم ان تتمثلوا ، أو تتخيلوا آلامـه وعنـاءه ، فلن تستطيعوا حتى تعودوا اليه ...

كيف يحســ رجل منعم ، تستقبله كل يوم مائدة متخمة بمناعم الطعــام والشراب ــ احســـاس رجل أضنى امعاءه القديد اليابس المتبــل بالذباب والتراب .. ؟

لقد ســـكن غاندى فى حى « الكناسين » ليستطيع اولا ان يحس نفس الاحاسيس التى يعانيها سـكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم ليستطيع ثانيا ان يرفع عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود ..

ونحن لا نـكلف زعمـــاءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه .. لانهم لم يتمثلوا بعــد فى وجداناتهم صورة صــحيحة للزعامة الرشيدة .. انهــم لا يزالون يرونها علوا فى الارض ، واشرافا على « المنبوذين » من مكان بعيد .

نعم . لن ندعوهم الى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علوا كبيرا .

وانما ندعوهم ــ وحسبنا هذا منهم ــ أن يعيشوا فى احســـاس الجماهير ، ولو على ضــوء ما يقرأون من أخبارها وشكواها ، وأن يجوسوا ، ولو مرة ، خلال النجوع والكهوف .. خـــلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب ان زعماءه يذكرونه ، ويشاطرونه ... فتقوم بينه وبينهم علاقات انسانية متآخية .

وان يكلف زعيم الحزب جميع نوابه وشيوخه بزيارة دوائرهم

زيارات دورية فاحصة ـ ويرفع كل عضو من هؤلاء تقريرا دوريا عن زياراته ومقترحاته

هذه هي بعض المقترحات التي تتيح لنا الانتفاع بأحزابنا ولابد لنا من ان نقرر مرة اخرى ـ انه اذا كان لاحزابنا خطايا واخطاء .. فهي ليست أصيلة ولادائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا مبرر له ولا دليل .

ووجود هذه الاخطاء لا يبرر التهوين من قيمة الاحزاب ، وحتمية قيامها ، كما لا يبرر ابدا المطالبة بالغائها ، أو توحيدها .

ان غاية ما تثيره وتدعونا اليه ـ هو الاصلاح الحاسم السريع .

* *

دور الشعب فى تقويم الاحزاب

وللشعب فى اصلاح الحياة الحزبية دور هام . فعلى احدنا اذا شارك حزبا من الاحزاب طريقه ، أن يجعل صلته به صلة تعاون ـ لا تعصب .

اننا نفسد رجالنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم ايمان الدراويش بشيوخهم .. ونخون انفسنا خيانة كبرى حين نلاشي وجودنا وشخصياتنا فى خضم الولاء الابله ، والثقة العمياء .

فى عام ١٩٤٦ ـ كان احد الزعماء يحرض الشباب جهرة على العمل لاسقاط الوزارة القائمة بحجة ممالأتها للانجليز برغبتها فى مفاوضتهم ..

وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة اخرى . وقررت مفاوضة الانجليز . وهنا نلتقى بنفس الزعيم يحث الطلبة على الهدوء وينهاهم عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضة . فلما ذكروه بنفسه . وبكلماته فى الامس الرطيب . أجابهم فى خبث ودهاء :

ـ ان الشعب الانجليزى ثائر على حكومته ، وهو يطالبها برد

ابنائه المجندين بمصر وغير مصر من البـلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هـذه البـلاد ومنها مصر ثائرة ضد بريطانيا ، فلابد من ابقاء جيش الاحتـلال فاذا احدثتم اى شغب انتفعت به الحكومة الريطانية فى اسكات شعبها اللحوح .

لم يكن الزعيم ـ كما سترى ـ يؤمن بحرف واحد مما يقول ـ ولـكن الاتبـاع المستسلمين مصمصوا شـفاههم اعجابا ، وانطلقـوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

واعجب الزعيم ايضا بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

ـ اظن اننا احسـنا اختيار الشكيمة .. ؟

وخرجت ليلتهـا افـكر : ما الذى أمسك بالسنة الطلبة عن مناقشة هـذا المنطق المضـلل المتهافت .. ؟

واجبت نفسى : انه الايمـان الاعمى بالزعمـاء . وانميـاع شخصية هذه الدمى الآدميـة وانطفاء نور الاعتداد فيها

فاذا شئنا تقويم احزابنـا ، لنفيدمنها ، وننمو بها، فلنحتفظ بشخصيتنا ازاءها ..

وشىء آخر لا يقل اهمية ـ وقد يزيد . هو أن نجل ثقتنا عن أن نلقى بها تحت اقـدام الذين لا يستحقون سوى الصفع والازدراء .

وان نمنحها للذين هم بهـا جديرون فى اناة وقصد .

وشىء ثالث ـ هو أن نـكون دائما ممثلين للامة فى الحزب .. لا ممثلين للحـزب فى الامة ـ بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب .. لا أن نتوسل بالشعب لخدمة الحزب

ج ـ القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التى آثرناها بالعرض .. ودعونا للتواصى بها

حتى تتالف منهـــا للجماهـير شخصية آمرة مسيطرة ..

ومعايير الامة هى منـــاط تقدمها او انحطاطهـا . ونعنى بالقيم والمعايير ـ تلك الادبيـات والتقاليد النفسية التى تسيطر على وجدانها ، وتوجه نشاطها .

ارايت امة يسود فيها مثلا ـ الايمان بالقناعة ... انها تمسى قنوعا فى كل شىء .. ليس فقط فى لقمة الخبز .. بل وفى طلب المجد كذلك ...

ولن نغيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فمجال الاسـهاب فيها كتب الاخلاق .

انمـا نعرضـــها من زاوية حاجاتنا كشعب طامح الى الحرية والخلاص .

لابد لنا من قيم عليا نابضة ، ننيط بها حياتنا .. وننظم حولها نضالنا مع الايام .

فلنبحث معا عن محور تدور حوله معايير الشرف والمجـــد جميعها ، ولنرفعه تجاه ابصارنا ، ثم نصبه صبا فى كياننا .

أما أن نختلف حتى فى اختيار القيم التى ينبغى ان نصل بهـا انفسنا ، فضلال بعيد .

اننا لا نحاول فهم الاشـياء ولا تحديدها .. والذى ينقصنا هو « النظرة المحددة لانفسنا ، وللحياة »

ما نحن ... ؟

بشرية ناميـــة تدور حـول الشمس ، وتتفاعل مع التطور السيار ...

ام بشرية محنطة جعلتهـــا الاقدار آية زاجـــرة للذين لا يؤمنون بالمسايرة والتجديد ؟

وماذا نريد .. ؟

ان نظل سوائم ذللا ـ ننشد الراحة . ونخلد الى الارض ..

ام نحترم آدميتنا ، فننشد الحرية بلا وجل .. ونكرس حياتنا لتحقيقها والظفر بها ؟

وما الحياة .. ؟

اهي ألغاز ، ومعميات . غاية سعينا أن نفلسفها ونفهمها ..

أم هي سعادة متاحة تنادينا لننالها ونحياها ؟

نعم . نريد من الحيـــاة أن نحياها . فكيف السبيل .. ؟

السبيل ـ ان نجيب أولا على هذا السؤال ...

هل نحن سكان غاب .. أم سكان وطن .. ؟

اذا كانت الاولى ، فلنــدع أمورنا تسير اذن على النحـــو الذى تسير عليه حياة الغاب

واذا كانت الثانيـــة فلابد ـ وهذه حقيقة يجب أن نتقبلهـــا بشجاعة ـ لابد من أن نستأنس ونحقق لانفسنا معنى المواطنية ـ كاملا غير منقوص .

واذن، فالمواطنية . هي المحور الذى نختاره لننظم حوله شتى قيمنا ، وكافة معاييرنا .

المواطنية ـ يا مواطنى العزيز هى من الآن مثلنا الاعلى .

المواطنية ـ هى من الآن هدفنا المجيد المفدى .

المواطنية ـ ان تكون فى وطنك مواطنا ـ لا مستوطنا .. وأن تكون فى المجتمع كفؤا وندا ـ لا تابعا ولا عبــدا .

والمواطنية ـ تقتضيك أن تكون فاضلا ، لا لمجرد حب الفضيلة وخيرا ـ لا لمجرد الرغبة فى الخير .. بل لتكون ياصاحبـى جديرا بوطنك ..

ونستطيع الآن أن ننصت لمؤلف « التربية لعالم حائر » يحدثنا عن المواطنية حديثا بليغا (١)

« .. اذا نظرنا الى المواطنية نظرة صحيحة ـ وجب أن تشمل جميع أعمال الانسان التي تمس بني جلدته ، وتؤثر في سلامة الدولة ورخائها ـ وتكاد تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه المواطنية كل شيء تقتضيه شرائع الدولة ، ويتطلبه الضمير الانساني .

«وليست المواطنية شيئا سلبيا ـ أي مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير وطنية . بل هي عمل ايجابي . وفي هذا يقول «بركليس» ـ اننا لانعد الرجل الذي يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة رجلا هادئا . بل نعده رجلا لا خير فيه .. ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل الذي ينام أثناء نوبة حراسته يذنب في حق الدولة عليه ، شأنه في ذلك شأن من ينضم الى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلا :

«والدولة المثلى هي التي يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءا من المجتمع الذي يعيش فيه ، ويساهم في أعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة ..

« وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءا واحدا من أجزائها معطلا ، أو خاملا ، أو صادئا ، أو مكسورا ، أو موضوعا في غير موضعه .. وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل في سرعة وتناسق ..

. « فالرجل الذي يتملص من اداء الضرائب المفروضة عليه ـ

---

(١) هو سير وتشرد لفنجستون ومعرب الكتاب ـ الاستاذ وديع الضبع .

مواطن رديء ، ومثله ايضـــا الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانيـــة الا فى مصالحه الخاصة ، اويهمل الاقتراع بتاتا ـ وتلك أيضا حال صاحب العمـــل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معـــاملة عماله ... ومثل هؤلاء أيضـــا ارباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعمـــلاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الاقدار .. »

بهذه البســـطة من الفهم ـ صور لفنجستون جغرافيـــة المواطنية ، ووضع معالمهـــا ، وضرب الامثال للتبعات الشداد التى تفرضها على أصحابها

ان المواطنيـــة ، كما رأينا ـ دين يدعو المـــواطن الى بذل الواجب من اجـــل الوطن ... ويدعو الوطن الى تمكين الفرد من اداء الواجب

هى الا تعيش فى بلادك محايدا ـ بل مجاهدا ...

هى أن تحتـــرم حقوقـــك ، وتمارسها حقا حقا ..

هى ان تدوس مصـــالحك الخاصة ـ عندما تصبح مصاير بلادك فى كف القدر ..

وهي أن تعـــامل الدولة أعضاءها ـ باعتبارهم مواطنين ـ لا رعايا ...

وان توقظ فى ضميرها معانى الانسانية والكرامة ...

وان تضع كل مواطن فى مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق ..

وان تعدل ـ ليس فقط فى توزيع الخبز .. بل قبل ذلك فى توزيع الواجبات والحقوق .

وان ترفع لواء المســـاواة ـ ليس فقط بين الناس ، والناس .. بل وبين العمل والجزاء ... فالاشراف العـــاطلون الذين لا

يعملون شيئا . يجب ان يحرموا من كل شيء ، واذا اغدقت الدولة عليهم تكريها فقد انتهكت كرامة المواطنين ، وحطمت معنى المساواة ...

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير – فاذا بخلت عليهم الدولة ، وازدرتهم ، فقد باءت بشر ما يبوء به الظالمون !!

بقي شيء آخر ، هو اسمى ما تتيحه المواطنية للناس – الكرامة .

فاظما ان ابدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان ادراك الهدى بتذلل لصار الهدى الا اميل الى الهدى

واذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما اصعب الاحتفاظ بها والحرص عليها ..

هؤلاء الذين جاءوا ، فسرقوا !

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول – التملق ، فتملقوا ونافقوا وهانوا ...

وهؤلاء الذين راوا الدولة تهملهم ، فاهملوها ..

وحسبوها تخونهم ، فخانوها

هؤلاء – وهؤلاء – ما الذى اغراهم بالكرامة والواجب .. ؟

انه اهمال الدولة لا ريب .. اهمالها الاخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها .

ومالم نقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فسنظل امة بطيئة الاحساس بكرامتها .. !

الغوا هذه الالقاب ..

ومسالة الالقاب فى مصر من اهم مسائلنا – قديراها بعضنا مسالة شكلية تافهة .. وهذا منهم حسن ظن عجيب .

والحقيقــة ان الالقاب فى بلادنا مصـــدر قلق وازعاج للكرامة القومية . بل والانسانية

انها اذلال لكبرياء الشعب ، وايغار لصدره ، وارباء لروح الطبقية المقيتة فيه ..

واذا كان لابد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيهـا نحو التبريز والتفوق والـكمال، فلتكن كلمـة « مواطن »

صحيح ان لقب « مواطن » حق طبيعى لكل فرد فى وطن ..

ولكن الدولة حين تمنحه احدا ـ يكون اعترافا منها بأنه قـد ادى واجبات المواطنية، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

اما لقب « باشا » مثـــلا ، فهناك أكثر من سبب يحتم علينا هجره والغاءه .. فهو ـ

اولا ـ لقب غير وطنى ، وهو من بقـايا الاســـتعمار التركى العثمانى . والامة التى تعجز حتى عن تمصير القابها ـ امة ساقطة من عين التقدم والنجاح .

ثانيـا ـ هـو رمـز بغيض للباشـوات الاتراك الذين كان الســلاطين يولونهم أمرنا ، فيقتلوا آباءنا ، ويستحيوا نساءنا .. وينهبوا ارزاقنا ..

ثالثا ـ ان أول رتبة «باشوية» انعم بها فى مصر ـ كانت ثمن خيانة اقترفها المنعم عليه ..

فقـد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين، وخاقان البحرين .. السلطان سليم ـ ان انحاز اليه أمير شركسى اسمه «خيربك» وقد لعب هذا الرجل دوراهاما فى تصفية المقاومة ، وتعبيـــد الجماهير للغازى سليم ، فاجتباه وانعم عليه بلقب « باشا » .. !

وهـكذا ظهرت الباشوية فى مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك أرجال الباشوات كأنهـا جـراد منتشر ..

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغرى السلاطين بها سفهاء الاحلام والنهى ، ليتفانوا فى خدمتهم التى تقوم على الجبن والظلم .. !

وكانت ايضا أداة يتوسلون بها لاذلال الشعب ، واشاعة الشعور بالدونية فى نفسه امام طبقة الباشوات العاطلين .. !

فلماذا اذن نبقى على القاب غير مصرية .. القاب حملها من قديم الزمن اناس شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا .. ؟

القاب كان لها منذ حين قريب سماسرة يتجرون بها علنا ... ويبيعونها جهارا نهارا ...

يقول المواطن : « احمد لطفى السيد » فى مذكراته المنشورة بالمصور العدد (١٣٥٤) :

« من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد، وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ — وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، واصبحت تعطى لا مكافاة على عمل من اعمال البسالة .. ولا على خدمة من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف .. وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف أخذ المؤخر ..

« وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال **لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم** .. فهى تلعب بأهوائهم، وشهواتهم ، وتأسرهم بها ...

« وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومات الحديثة فكانت اثرا من آثار الاستبداد الاولى » !

ارايتم .. ؟

أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون أمامهم فرقا .. لم يكونوا على شىء من العلم ، ولا من الصلاحية ...

ولكنهم اشتروا من السماسرة لقبا فضفاضا يسترون به هزالهم، ويتألهون به على العباد .. !

ما أروع ابن عبد الله ـ حين ناداه صحبه ـ أنت سيدنا ، فقال غاضبا :

لايستهوينكم الشيطان .. ولاتقولوا عنى « سيد » .. انما انا عبد الله ورسوله .!!

ثم ما أبلغ العبارة التى رفض بها « برنارد شو » الالقاب الكثيرة التى عرضت عليه :ـ

« انهـا قيود من ذهب . تضطر الانسان لان ينحنى كى توضع فى رقبته » ..!

وما اشد حاجة الامة التى تحللت شخصيتها وتلاشت الى نبذ مظاهر التمايز ، واماطة « الالقاب » عن الطريق .. ان اللقب دثار يغطى عزى لابسه .. عريه الوطنى وعريه الاخلاقى

الم يكن كذلك ، لخير بك . . الذى صار خير بك باشا .. فغطى خيانته الى حين ..؟

ونحن على يقين من ان الذين يسفكون كرامتهم .. ويهرقون ماء وجوههم لينالوا لقبا ـ انما يحفزهم لهذا الرغبة المنحطة فى التبذخ على الشعب .. فلنقطع عليهم السبيل .. ولننتزع عن أعناقنا هذه الاطواق .

وبعد ، فهل يمكن أن نكون مواطنيين بلا وطن .. ؟

لقد وضحنا فى هذا الفصل الى حد ما الوسائل التى تفضى بنا الى انهاض شخصية الشعب كى تعمل ..

ولكن أين تعمل اذا هى لم تجدلها مجالا . .

لابد لنا من وطن .. يكون خالصا لنا دون المستعمرين والمستغلين ..

ومصر ـ هى الارض التـــى درجنا منهـــا ، ومهدنا فيها ، ورضعنا بلبانها . .

ولكن الاستعمار اختلسها منا . . وصيرنا فيها غرباء وصبغ كل مقوماتهــا بلونه ، ومن أردأ من الاستعمار صبغة . . ؟

ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن

فكيف السبيل ؟

تمصير مصر ..

« لتكن غايتنا فى الحياة — بلادنا
« بلادنا وحدها ..
« وبلادنا كلها ..
« ولا شىء الا بلادنا »

دزرائيل

فى الفصـــل الاول من الكتاب رأينـــا كيف دخل الانجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الاتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا. وقلنا ـ ان الاستعمار التركى قد اختفى حـــكامه ـ وبقيت تقاليده وشعائره واحكامه .

ولكى نمصر مصر .. لابد من ان ننفى عنهـــــا هذه البقايا ـ ونطهر حياتهـــا من تلك الشعائر والاحـــــراش وذكرنا ان الطريق لهـــذا ـ هو الحرية الغامرة ، وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الـكرامة والكبرياء فيها ـ وفى هذا الفصل نتدارس الوسائل المفلحـــة التى نمصر بها مصر من الاستعمار البريطانى .

وخليق بنـــا أن ندرك بادى الامر ، أننـــا حتى اليوم لم نحدد وعينـــــــا لهذا الاستعمار ، ولم نحدد الوسائل المجدية فى مكافحته وطرده .. ولعل سبب ذلك اننا لم نؤت بصرا كامــــــلا باخطاره واوزاره ومدلوله .

فالكثرة الغـــــالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضـــة فى القنال . ثم تتميز من الغيظ . وتظن أن هــذا الاحتلال المسلح هو وحده ـ الاستعمار البريطانى

علينا ان نتعمــق فى فهم هذا الاستعمار ونفوذه .

وعلينا قبل الخطوة الاولى ان نعلم ان هــذه الجيوش المعتدية التى « برطنت » منطقــة فايد ، وجعلتها مدينــة انجليزية كبرى

هذه الجيوش التى تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكا تنوء بحمله الارقام .

هذه الجيوش التى تطأ بنعالها كرامة الشعب وطموحه ـ ليست الاحتلال البريطانى ، ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتـــلال .

ومن الممكن جـــدا أن تجلو القوات البريطانية عن ديارنا ..

ويظل جاثماينشر وباءه وبلاءه . وانه لأمر مؤسف ان تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا ..

الا تذكرون الايام الغبية التيحشدت الدولة فيها كل مظاهر الحفاوة والفرح بعيد الجلاء . .جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهللنا وكبرنا ، ونحن نعلم انهاستعسكر على بعد خطوات. . ؟ !

لقد كانت هذه الظاهرة ، ولاتزال آية على اننا نحسحقوقنا احساس العبيدلا احساسالاحرار . ولقد كان مثل الانجليز معنا بهذا الجلاء .كمثللص تسور الابواب ، واقتحم الدار على أهلها ، وأشاع فيالبيتالرعب والغش والفساد .. ثم أخيرا تفضل وتكرم ، وقرر أنيدع لأهل البيت غرفة النوم .. ويذهب هو ببقية الحجرات ..!

فلننظر الى الاستعمار نظرةواعية شاملة . ثم لنمض فيطريق اجلائه أو افنائه .

***

النفوذ ، والاحتلال

قلنا : ان الاحتلال العسكريلمصر مظهر من مظاهر الاستعمار ـ ولا يزيد . . وهو وان يكأكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وافعلها في اثارة كوامن الحقدوالثأر ـ الا أنهلاينبغي انيشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار.. بل يجب أن يتجه كفاحنا اليها جميعا بعد حصرهاوتحديدها ..

والاستعمار يعتمد هنا علىشيئين .

ا ـ النفوذ السياسي ..

ب ـ الاحتلال العسكري . .

ولنبدأ بالحديث عن أولهما . . متتبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق ابادتهاواجتثاثها ..

النفوذ السياسى .

ان بريطانيا تسيطرعلىحياتناووجـــودنا سيطرة سياسية محيطـة .. وآراؤها ،وخططهاهى عجـلات الآلة الدوارة . . ونحن ــ شعبا ودولةـلسناأكثرمن الصـــوت الخارجى لهذه المجلات ..

انـنـــا امة لاتريد .. بل يراد لها ..!

● يراد لها أن تنشىء جامعــةعربية ، تزيدها وهنا على وهن ، فتنشئها ..

● ويراد لها أن تبرم معاهدةلتوكد مشروعيـــــة الاستعمار فتبرمها ..

● ويراد لها أنتخوض حروبامرتجلة ، فتخوضها ..

● ويراد لها عام «١٩٢١» أنتدخـــــــل فى مفاوضات مع مستعمـــريها لتمزق وحدتها ،فتدخل فيها ..

● ثم يراد لهـــا الدخول فىمفاوضات اخرى ــ هى امتداد لنفس المفاوضات القــديمة جدا .. فتسارعوتتهافت ..

● يراد لهـــا ان يحكمها هذاالحزب ، فيحكمها .. لم تتغير المشيئة ، ويراد لهـــا أن يحكمهاحزب آخــر ، فتتم الامور على مايراد ..

ونحن فى كل هذه النقـــــلوالتغييرات والاحداث نظن اننـــا نتحرك بارادتنـــا ، ونفكر بعقولناونقف على أرجلنا ..!

ان تطهـــير «الارداة المصرية »من هذا النفوذ السياسى ، لايقل اهمية عن تطهير«الارضالمصرية»من الاحتلالالعسكرى ــفاذكروا هذا جيدا . ودعونا نسأل : علىأى شىء يرتكز النفوذالبريطانى؟.

هذه نقط ارتكازه ..

١ ــ المعاهدات :

عند مايريدالاستعماراستعبادامة واستثمارها يحاول جاهدا أن يربطها بعجلته عن طريق صك عبودي ــ يسمى فى اللغة المظلومة .. « المعاهدة » اوبريطانيا تعلم ان هذا العصر الذى تعيشه الانسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الغزاةيروحون فى بلادها ويجيئون .. لذلك فهى تستعيض عن الاحتلال العسكرى بالاحتلال السياسى ــ اى بالمعاهدات .

وعن طريق المعاهدات يصلون الى كل الاغراض التى كان الاحتلال المسلح يحققها لهم

فباسم المعاهدات يحرمون حليفهم من التسلح ..

وباسم المعاهدات ــ يثيرون فى الشعب الحليف كل انواع الفتن والمؤامرات ..

وباسم المعاهدات ــ تجتازطائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتسارا ..

وباسم المعاهدات ــ يحاصرون قصر الملك الذى تحالفهم حكومته ...

وباسم المعاهدات ــ تؤخذ اقوات الشعب وخيراته ليطعم بها الجيش المحتل ــ ولتباع الى الدول المعادية التى انشأها حلفاؤنا انشاء لتكون لنا شوكة الجنب على الدوام ..

وباسم المعاهدات يجترح الاستعمار ــ وهو يبتسم ــ كل المقابح التى كان يقترفها ، وهويزمجر .. !

والدليل الذى ليس بعده دليل على ان المعاهدة هى بديل الاحتلال العسكرى .. تشبث بريطانيا بعقدها معنا .

لقد كنا نحسب اننا خلقنا فقط لنتألم .. ثم نموت .. بيد اننا

تبينا اخيرا ـ اننا خلقنا لنتألم. ونحالف بريطانيا .. ثم نموت.!
لماذا نحالفها ..؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها .؟

لقد حالفناها بمعاهدة «٣٦» وكان لهذه المعاهدة معنا قصة الببغاء التى تجيد جميع اللغات.

او تعرفونها معشر الزعماء .؟

اقرءوها ، فقد ترون فيها فائدة ودرسا ..

***

رووا ـ أن رجلا كان يملك « ببغاء » أعياه غباؤها المطبق ، فاجتهد ان يعلمها فقط هذه العبارة « لاشك فى ذلك » !

ثم خرج بها الى السوق ونادى :

ـ من يشترى ببغاء تتكلم بجميع اللغات ..؟ ـ وساق الحظ اليه زبونا مغفلا تقدم اليها وسألها :

هل تجيدين جميع اللغات .؟ اجابت : لاشك فى ذلك ..!

فاستخفه الطرب ، ونقد صاحبها كل ما معه من مال ـ

وهناك فى قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا اليه أصدقاءه من كل نحلة ولسان ،

وبعد تناول المرطبات قدم اليهم ، أو قدمهم الى ببغاء الشرف والكمال .. وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهى لا تجيب بغير هذه العبارة ـ لا شك فى ذلك ..!

وادرك صاحبنا هول الكارثة ـ فلما انصرف الضيوف اقترب منها فى خطوات متهالكة ودار بينهما هذا الحوار : ـ

هو ـ اذن ، فانت لا تعرفين شيئا .. ؟

هى ـ لاشك فى ذلك .

هو ـ واذن فانا مغفل مخدوع .؟

هى ـ لاشك فى ذلك ..!

وحملهـــا من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتـــدى اليه ـ وهناك اجلســـها امامه وسألها : ـ

ـ ان بائعك هذا أفاق وغشاش ـ أليس كذلك ..؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك .!

قال ـ ويســـتحق الزجر والعقاب .. ؟ اجابت : لا شـــك فى ذلك .

وقذف بها فى وجهه ،واسترد ثمنها ومضى ..

***

أليست قصـــة هذه الببغـــاء هى بالضبط قصة معاهدة «٣٦» مع فارق هام .. هو ان مخدوع الببغاء مسح الاهانة عن نفسه، واسترد حقه المنهوب ..

لقد رجع زعماؤنا الينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها « ملكة جمال » المعاهدات ..!

وفى غمرة الحفاوة بها ،وقبل ان يجف مدادها سألناها :ـ

ـ ايجوز ان يبيعنا الانجـــليز غداة توقيعك ذخيرة«كذابة».؟

اجابت : لاشك فى ذلك !

ـ ايليـــق ان يتخـــلوا عن التزاماتهم نحـــونا فى معـــركة فلسطين ؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك .!

ـ ايجوز ان يتقاضوا منـــا ثمن اسلحة .. ثم يحنثون بالعهد ويبيعون السلاح لاسرائيل ؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك !

ـ ايجوز ان يشيدوا فى بلادنا مدائن باذخة ، بعـــد ان كانوا

يسكنون قصرا متداعيا على ضفة النيل ..؟

اجابت : لاشك فى ذلك .!

أيجوز أن يمخروا مياهنا حاملين البترول والمعدات لاسرائيل التى لا تزال تتربص بنا ..؟

اجابت : لاشك فى ذلك .!

ـ اذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال .. ؟

اجابت : لاشك فى ذلك .!

ـ واذن ، فنحن مغفلون مخدوعون ..؟

اجابت ـ لاشك فى ذلك .!

***

ان كل معاهدة تعقد اليوم ، أو تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون احسن حظا من سابقتها

وان الطريق الوحيد المفضى لعهد شريف ابى عزيز ان يجلو عن بلادنا النفوذ السياسى والاحتلال العسكرى لبريطانيا . ثم بعد ذلك نفكر بعقولنا ، ونريد لانفسنا بأنفسنا .. اما معاهدة يساومنا بها المستعمر على استقلالنا ـ فأهون منها عدمها .. وبقاء الاستعمار غير متلفع بأردية كاذبة خادعة من الاتفاقيات والمعاهدات .

أيجوز بعد كل هذا ان نحالف الذين جعلونا سخرية وهزوا ؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله حبال هذا العهد فى سورة عاصفة ابى ان يبدأها ببسم الله الرحمن الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :ـ

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

ـ « خذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد » .!

وانجلترا نفسها تأستبالقرآن في ظروف مشابهة .. مع انها كانت تمثل جانب البغي والعدوان .. فحين هب رشـــيد عالى الكيلاني في وجهها قالت : هـذاخرق للمعاهدة . وبعدساعات. كانت السماء تمطرجنودا حاربواالعراق حربا خاطفة عصوفا

ولقد كان الوضع الطبيعي ،وقد خرقوا ما بيننا من عهداكثر من مرة ان نصنع ما كانوا لابدصانعيه لوانهم مكاننا ـ فنأخذهم .. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .

***

قد يقال : ان بريطانيا اليـوم غيرها في الامس البعيد والقريب ـ بريطانيا العمال ـ غير بريطانيا المحافظين الا فلنستمع اذن لآية فاصلة من انجليزي عريق تمرد على سياسة بلاده وحرض عليها جميع البشر وكشف للناس عن « ثعبانيتها » وتأصل الغدر فيها ـ ذلكم هو توماس بين

فلننصت لكلمته .. ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع ان ترد الى المومس طهارتها الاولى .. ؟ ان السياســة البريطانية كذلك ـ فقدت الى الابد شرف القصد ، وطهارة الضمير » ! !

ولكن قد يقنعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلا آبقا عاقا ..

فلندرس اخلاق سياســتهم اذن على ضوء عبارة اخرى قالها قطبهــم الاكبر « دزرائيلي »واتخذوها مبدأ وشعارا ـ تلك هي : ـ

« اكذب ... واكذب ... ثم اكذب دائما ، فلابد ان تجد من يصدقك » ؟!!

ان الانجليز لا يصلح معهــم عهد ابدا ـ الا اذا كان مع قوم

أولى بأس شديد يخافونهم ويرهبونهم ..

ونستطيع أن نفترض حسن نيتهم اذا عاهدناهم من جديد ، وننسى طغاوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا ايضا لا يكون من صالحنا قط ان نتخذهم حلفاء أو أصدقاء ..

لماذا ..؟

لأن الانجليز تعودوا دائما ان يتخذوا من حليفهم « كبش الفداء » ولقد ذاق الامريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ، وسربوا غيظهم أيام الحرب الاخيرة في سخريات .. فمثلا :

دخلت سيدة أمريكية المسرح، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون جميع المقاعد الامامية ، فقالت:

ـ ان الانجليز في المسارح يحتلون الصفوف الامامية ـ ويتركون الخلفية لنا ـ ولكنهم في الميدان يحتلون الصفوف الخلفية ، ويتركون الامامية لأبنائنا ..!

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الانجليز فالمعاهدات التى تربط الضعيف بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة ، وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال واحر بنا ان يحتلنا الانجليز باكراه ، من ان يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

***

شاهد من اهلها

ثم ان اى معاهدة جديدة تربطنا بالانجليز ، سيكون عصبها الدفاع المشترك .. وهذا الدفاع المشترك .. كائنا ما كان اسمه وطريقته ـ يقف في الوجهة المغايرة للسيادة والاستقلال ..

ولسنا نحن الذين نقول ذلك ـ بل هو السيد « بيفن » نفسه ـ والى زعمائنا الابرار .. نقدم هذه العبارات التى قد تنير لهم الطريق .

في نوفمبر سنة ١٩٤٥ ـ وقف مستر بيفن يخطب في مادبة الغرفة المصرية البريطانية فقال مخاطبا الاعضاء المصريين :

« .. ولكن يجب ان يبقى ما ندعوه بالدفاع المشترك . لانه لا غنى لاحدنا عن الآخر ـ وان الاستقلال آت لا ريب فيه .! »

اذن فالدفاع المشترك شيء آخر ينافى الاستقلال ولا يظاهره

وبيفن يريد منا سنة ١٩٤٥ ان نوافق على الدفاع المشترك . ويطمئننا على ان الاستقلال آت فى ميقات مجهول . . قد يعلمه « بيفن » ولكن المصريين آخر الذين يعلمون . . . والذين لا يعلمون .. !

وبهذا المقدار من الحديث نرجو ان نكون قد وقفنا على ما فى التحالف مع الانجليز من غرم وبوار .

وسنتحدث عن وسائل الخلاص بعد ان نتم سرد بقية القواعد التى يرتكز عليها نفوذ الاستعمار .

ب ـ الارجاف بالشيوعية والحرب

ان بريطانيا المومس ـ لن تسترد طهارتها الاولى ـ هذا اذا كانت السياسة البريطانية قد أتى عليها حين من الطهر والنقاء ،

انظروا .. ان اسلوبها الاستعمارى لم يتغير ..
والاحفاد من ساستها يسيرون وراء الاجداد حذو النعل .. بالنعل . .

فيوم دخلت بلادنا لاول مرة . زعمت انها آتية لتثبيت سلطة الباب العالى ، وطرد الفرنسيين الطغاة ..

وكانت انجلترا يومئذ تتزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة الفرنسية .. ولما يمكن ان يترتب عليها من تغيرات اجتماعية خطيرة ..

ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . . وقف رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وقال : ـ

« يجب ان نعاون الالمان على النمو والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . »

وفى سنة ١٩٣٦ - بدأت انجلترا نفسها تتزعم مقاومة عالمية ضد النازية - وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعا على معاهدة فاشلة هى معاهدة « ١٩٣٦ »

واليوم لا خوف من ثورة فرنسية ، ولا خوف من النازية . فبم تبرر انجلترا بقاءها .. ؟ بالشيوعية طبعا .. !

فلتكن الشيوعية خطرا على بريطانيا كل الخطر ..

ولتكن بريطانيا موطدة العزم على محاربتها فى عرينها الاول روسيا . .

ليكن ذلك ..

ويبقى ان نتساءل : ما صلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

ما لنا وبريطانيا تحارب او تحارب ، تظفر أو تهزم .. !

هل نحن احدى كتائب جيشها الثامن .. ؟

او نحن واياهم كما قال الشاعر العربى القديم :

اكلما حاربت خزاعة تدعو نى كانى لامهم جمل ؟

ان « الشيوعية » ضوء احمر تسلطه بريطانيا على عيون الحاكمين لتزيح به ابصارهم عن الهدف المتمثل فى طردها ، واجلائها

ما ذا كان يعنى بيفن حين قال اكثر من مرة - وفى مناسبات عدة . . ان الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات اذا دخلت مصر . ؟!

قالها مرة فى حديث صحفى . . وقالها لسفيرنا فى لندن ونشرتها مجلة المصور ضمن الوثائق السرية التى اذاعتها عن محادثات « عمرو - بيفن »

اليس ذلك ارجافا وتخويفا تهدف السياسة البريطانية بهما

الى فل ارادة الباشوات والحاكمين وعزلهم عن حركة المقاومة التى يدخرها الشعب للانجليز . . . ؟

لكن الباشوات الذين عرضبهم بيفن سيخلفون ظنونه . . والذى يتخلى منهم عن جهاد أمته لن يضيرنا ولن نعير به ـ لانه ساعتئذ لن يكون مصريا .

الم يقل لنا « توماس بين » ـان المومس لا تسترد طهارتها الاولى . . ؟

ان السياسة التى احتفرت وقيعة قديمة بين توفيق وعرابى، وبين الباشوات والشعب . . تريد اليوم ان تلعب نفس الدور، فتلقى فى روع الحكام والزعماء ان الشعب يترصد لهم لينهى حيواتهم بفاجعة . . ويوهمون الشعب أن كبراءه ، وحكامه ـ يعملون معهم ضده . .

ولن تقر للمومس عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الاثيمة والوخيمة التى حققتها بالامس .

وهذا يفتح أعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التى يعتمد عليها نفوذ الاستعمار .

شحذ باسنا بيننا .

والسياسة البريطانية لكى تبقى وتسود ، تورى نار البغضاء والفرقة ايراء موصولا . . وتذر شعبنا المسكين يمور فى حديدها المفرغ ، وصخرها الاصم . .

وهى فى ذلك ذات براعة ومهارة . . ليست كالمغفل الاكبر « موسولينى » الذى كان يقيم لرعاياه المتذمرين حرب «المقلاع»!

بل هى تضن علينا حتى بثمن الرصاص الذى تفرغه فى صدورنا . . ولتركنا نحن نشترى الرصاص بأموالنا ـ ثم تحرضنا، فنطلقه لا فى دماغ الاستعمار فنفجره تفجيرا . . بل نمزق به أنفسنا ، ونهرق به دماءنا . .

وهي تعتمـد فى تأليب بعضنا على بعض على سـلاح تناهى فى الخطورة هو ـ تشريد الثقة التى تربطنا ، واشاعة روح الاتهام فى المجتمع .. ولقـد افضى سعيها الحثيث فى هـذا السبيل الى ما نحن فيـه اليوم من استرابة فى كل اخـلاص ، وتصـديق لكل شائعة واتهام .

لقد قلنا من قبل : ان لبريطانيا سفارة اخرى غير رسمية .

سفارة مجهولة تحيط بكل شىء علما .. وتملأ ضمير الامة شـكا وريبا ..

ومهمتها الاولى تشويه سمعة الزعماء والناصحين حتى لا يؤمن بهم الشعب ..

وهذا نبأ قريب ، من آلاف الانباء التى توكد هـذه الحقيقة أعمق توكيد .

ـ فى اثناء الحرب الاخيرة ، اوفى بداءتها ـ وقف الاستاذ الاكبر المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغى » وقال فى خطاب احـد اعياد الهجرة :

« ان العالم الاسلامى لن يخوض حربا لاناقة له فيها ولاجمل .. »

وفى صـبيحة الامسـية التى اذيع فيها هذا الخطاب ـ كانت شعوب الشرق الاسـلامى تردد ـ فيما نظـن ـ هـذه العبارة المستنيرة ..

واسرها الانجليز فى انفسهم .. واصدرت السفارة غير الرسمية اوامرها الى « لجنـة الاشاعات والتهم » ان تشكك الجماهير فى قيمة الشيخ المراغى ، وفى سلوكه .. وذات يوم ، وفى اعقاب صلاة الجمعة ، اذا بالسماء تمطر سيلا من المنشـورات .. تزعـم ان الشيخ المراغى حضر ليلة « كذا » حفلة ساهرة بالسفارة الانجليزية .. وانه شرب الخمر حتى فقد صوابه .. !

ان الانجليز لا يهدفون بمثـل هـذا التشهير الى هدم القيمـة

الشخصية والشعبية ، للمواطن المخلص وحسب . . بل هم يستهدفون غاية ابعد ، وهدفا أخطر . .

فهم يعلمون ان مجرى حياة الامة هو مزيج احساسها وتفكيرها ـ وتسميم هذا المجرى يتاتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا ـ ليفسدوا علينا امرنا كله .

وهم قوم لا يعجزهم ان يفتاتوا ويكذبوا ـ

ان نبيهم دزرائيلى علمهم ان يكذبوا ـ ويكذبوا دائما . . فلا بد ان يجدوا من يصدقهم . .

ولقد وجدوا فعلا من يصدقهم . .

وا اسفاه علينا . . !

ما اسرع ما نصدق ، وما اسرع ما نحاكى . . فنحن لم نصدق خرصهم فحسب . . بل ذهبنا نحاكيهم فى الارجاف ويلتمس بعضنا لبعض التهم والعيوب

كثيرون منا من اشبع بهذا السلوك النفسى روحه . . وصغا اليه قلبه . . وصار يعتمد فى محاربة مخالفيه فى الراى على هذا السلاح الموتور .

وان اقدامنا لتتعثر بهؤلاء الذين وقفت اخلاقهم عن النمو . . اذا جاءهم احد بما لا تهوى انفسهم ، قالوا :

هذا صنيع جماعات تبشيرية ـ وطليعة حرب صليبية . . او مؤامرة شيوعية . . !

وقد تلتقى بهؤلاء المرجفين انفسهم يقولون فى غباء مضحك :

ـ ان الاسلام أخذ الشيوعية ، واخذ المسيحية ، وصنع منهما معا نظاما اسمه الاسلام . . ثم لا يتهمون انفسهم ـ طبعا ـ بانهم شيوعيون ، ولا صليبيون !

مساكين . . انهم ضحايا الاستعمار الذى افسد علينا انفسنا . . وشرد ثقتنا بها ، وبالآخرين .

الخداع بالهيئات الدولية ..

ان الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا . . وهو يعلم روح العصر الذى نعيش فيه .. هذا الروح الانقلابى المتحرر الذى لا يريد أن يرضخ لضيم ، ولا ان يسام كما تسام القطعان ..

لذلك اصطنع هيئات دولية تكون أداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة ..

فلو لم يكن فى الدنيا آفة تسمى « مجلس الامن » لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها ـ يوم كانت تمور مورا عنيفا عقيب وضع الحرب أزارها ..

ولكننا اتجهنا الى مجلس الامن ، وهيئة الامم .. وران علينا الركون .. وقامت فتن .. واصبحنا اليوم فى شغل بانفسنا عن عدونا ـ وهذا ما يريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية ..!

ماذا صنع لنا مجلس الامن .. ؟

لقد أوصانا بالاناة ، والحلم ، وحسن الضيافة .. !

وماذا صنعت هيئة الامم .. ؟

لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا « صلاح الدين بك » وعطلت جلساتها يوم عيد الاضحى الماضى ، احتراما لنا ومجاملة كريمة منها .. !

هذه هى التضحية الوحيدة التى ضحت بها الهيئة من اجلنا . شكر الله لها ، ورعاها .. !

الا انه اذا أراد قادتنا وحكامنا ان يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه الهيئات ومناقبها كثيرا .

أما نحن ، فنريد لهم مزيدا من العقل والفهم .. لذلك لن نحدثهم عن مناقبها .. بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

ان هذه الهيئات التى يخدعنا الاستعمار بها ـ ويتظاهر بالتفزع حين نلوح بالاختصام اليها ـ هى « القـابلة » التى استقبلت « اسرائيل » على كفيها الآثمتين. وقالت لها كونى شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك .. !!

هى التى وقف « النقراشى » تحت سقفها ، يقول ما لم يقله أحد قبله ، وما لن يقوله أحد بعده .. والاعضاء المحترمون يتثاءبون .. حتى اذا قام ممثل بريطانيا ليتكلم .. اصغوا اصغاء جميلا ، وصدقوا افكه ـ وتركوا مصر لا تزال تعج فى قيودها الغلاظ ـ الثقال .. !

وكل محاولة ، ولو فاجرة ، لدولة كبرى ـ تسارع هذه المنظمات الدولية لمناصرتها .

فاذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة .. ولعن الله من ايقظها .. !

ان أحسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات ـ تلك العبارة الجامعة لكاتب أمريكى نعتها بانها « وكالة حكومات » ..

فلينكشف عن أبصارنا غطاء الوهم .. ولنوفر ما نسفكه فى تلك الهيئات من وقت ، وجهد

ولنأخذ الحكمة ، ولو من وايزمان .. الذى كتب لأمته يقول :

« ما من دولة فى العالم بنيت بوعد ، أو مرسوم .. انما يبنى الدول ، كفاح الشعوب عبر الاجيال .. »

لا مجلس الامن ، ولا هيئة الامم ، بقادرين على منحنا الحرية والاستقلال ـ الا اذا منحناهما نحن القدرة اولا .. من كفاحنا الحاد ، وصراعنا الرهيب .

د ـ الاحتلال العسكرى ..

وختام هذه المرتكزات التى يعتمد عليها ـ الاحتلال العسكرى

ان الانجليز متشبثون ببقـاءجيشهم جاثما فوق اسـتقلالنا وكرامتنا ـ لا خوفا من روسيا . ولـكن خوفا منـا نحن .. ان تاريخهم الاسـود معنا يفزعهم ، حريتنا كاملة ، فلن نختـارهم ويوحى اليهم اننـا حين نملك حلفاء ، ولا اصدقاء ..

لقد قال الشعب رأيه فيهم .. وهو لا يخرج عن راى صـاحبهم « توماس بين » !

وقالت الحكومة رايها واضحا كفلق الصبح فى مجلس الامن .. قالت : (١)

« ان الانجليز فضـوليون ، يعرقلون توثيق روابط الوحـدة بيننا ، ويعملون على هدمها . ويخلقون الاقليات ويشجعونها ، ويبقون البلاد فى حال من التاخر، والشقاق ..

« .. ان العهد الذى بيننـا وبينهم بمعاهدة « ٣٦ » ليس سوى اثر من آثار القرصنة التى نجهد فى نسيانها .. ولم يبق فى هذه المعاهدة الا ما يهدد السلام .

« .. ولا ريب انكم ستكونون عونا لنا عى استئصال هـذا السرطان الذى ينتاب السلام فى وادى النيل .. »

بعد ابدائنا هذه الآراء فيهم ـ حكومة وشعبا ـ فقدوا كل أمل فى مودتنا ـ واعتقدوا اننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم ، وربما من اعدائهم .. لهذا قرروا الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا مآربهم منا كرها ، واقتسارا ..

ان بريطانيـا تضمر لنا زراية اكيدة ، واحتقارا كبيرا .. بل هى لا تضمر ذلك .. وانما تنادى به وتصـيح . وشـاهدنا على ذلك مستر اتلى نفسه ...

---

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الامن

لقد وقف خطيبا فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين يوم ٥-٩-١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : - (١)

* *

« .. لقد قابلنا العدوان الشيوعى فى الطريق حين تركنا الهند ، والباكستان ، وسيلان - تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »!

ارايتم يازعماء مصر .. ؟

اسمعت ياشعب مصر .. ؟

بل اسمعتم يا ضحايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام؟

لو كنا مصدر اخافة وخطر .. لتركتنا بريطانيا نتمتع بحريتنا ، وسيادتنا .. ولو ان بريطانيا ترجو لنا وقارا - مثل الوقار الذى ترجوه للهند وجاراتها . . لتغير تاريخنا .. أو على الاقل ، لم نكن سنجد ذلك الضابط البريطانى الذى يطرد من امامه ضابطا مصريا دخل عليه مكتبه فى « فايد » قائلا :

اخرج .. انت هنا فى ارض انجليزية ..!

هذه - مجتمعة - هى الاستعمار ..

ا - المعاهدات ..

ب - التخويف بالشيوعية والحرب ..

ج - اغراء بعضنا ببعض ..

د - الخداع بالهيئات الدولية .

ه - الاحتلال العسكرى

والآن .. اين الطريق .. طريق الحرية والخلاص . ؟

هنا هو الطريق ..

فى نقيض الوسائل التى يتوسل بها الاستعمار لدعم نفوذه - تتمثل

(١ - آخر لحظة العدد ٨٨)

وسائل تحريرنا وظفرنا — فاذا كانت أولى وسائله ، المعاهدات . فليكن نهجنا .. لا معاهدة !

اننا مع بريطانيا فى مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم ننل منها سوى تمزيق صفوفنا، وتحطيم مقاومتنا .

وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا — لايشجع ابدا على التفاؤل بمستقبل أخلاقها السياسية .. ستظل كما هى تتوسل بكل موبقة لمنافعها الخاصة ، وأغراضها الاستعمارية ..

وما من زعيم مصرى ، الا وصرخ بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم . ونحن نهتم جدا بآراء زعمائنا خارج الحكم لانها غالبا لا تكون ثمرة حرص ولا غرض ..

فى يوم ٣١—٧—١٩٤٨ — صرح عزام باشا لجريدة المصرى هذا التصريح : —

« ان موقف انجلترا معنا فى هذه الحرب — يعنى حرب فلسطين — دليل واضح على أن معاهداتنا معها لا قيمة لها ، الا حيث تكون المصلحة الانجليزية .. ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة أن يرضى بحلف مع بريطانيا كل نتائجه بالنسبة لنا أن تمتنع فى أيام شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات »

هذا كلام رجل مسئول ، نختاره من دون الرجال والزعماء، لأنه شخصية محايدة — ويحتل مركزا محايدا — وهو لهذا أبعد من غيره عن مواطن الريبة فى احاديثه السياسية — على الاقل .

ولنكن واقعيين ، فنسأل :

من اذن نحالف .. غير بريطانيا؟

هل نحالف أمريكا مثلا ..؟

كلا .. ان امريكا شريكة الاستعمار البريطانى فى كل جريمة منذ غادرت عزلتها .. وانطلقت فى شره واستكلاب نحو السيطرة السياسية على العالم ، وعلى البترول ..

ولقد جاهر أيضا بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن فى حديث مسهب طويل ..

وكتب مراسل من امريكا يصور وجهة نظر وزارة الخارجية الامريكية فى قضية مصر بالذات، فاسمعوا ماذا يقول :ـ

« ان وزارة الخارجية الامريكية ترى أن جلاء القوات البريطانية عن مصر، لا بد أن يعقبه اشراك مصر فى الكتلة الغربية للدفاع عن البحر الابيض المتوسط، ومناطق الشرق الاوسط، وافريقيا .. وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان ومد مصر بالاسلحة .. ثم ضمها الى ميثاق الاطلنطى خاصة اذا ضمت تركيا اليه ..

«ولكن وزارة الخارجية الامريكية **تشعر بان الوقت لم يحن بعد لان تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول الكبرى فى الدفاع عن الشرق الاوسط ..!**

«والسياسة الامريكية التى تخضع الى حد كبير للنفوذ الصهيونى، لن تسمح **بهذا لانه يؤدى الى الاضرار بمركز اسرائيل ..!**

«وبالرغم من ان مصر دولة مستقلة، فان وزارة الخارجية الامريكية لاتزال تعتبرها **منطقة نفوذ بريطانية** ـ وهى لاتنظر اليها نظرتها الى تركيا والباكستان، كدولة ذات شخصية دولية مستقلة »..!!

فليحفظ المصريون هذه الحقائق ـ كما يحفظون السورة من القرآن .. أو الآية من الانجيل ..

● ان السياستين الامريكية والبريطانية شىء واحد فيما يتصل بقضيتنا .

● الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفا من أن نستعمل السلاح ضد اسرائيل .. وليدهم الناشىء المدلل ..

● **والاتفاق تام كذلك بينهما على أن تظل مصر دولة صغرى .. ومنطقة للنفوذ البريطاني ،يطلق فيها يده كما يشاء ..!**

والدليل على هذا ان امريكا نفسها تقدمت للمسئولين في مصر بنصيحة فحواها ـ أن نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق المفاوضة . .

من اذن نحالف غير بريطانيا وامريكا ..؟

واجيب ـ فلنحالف انفسنا .. ولن نجد احدا سوانا يستطيع ان يدرأ عنا الاعاصير .وصدق المتنبي :

خليلك انت ، لا من قلت خلي
وان كثر التجمل والكلام

واذا كان الحياد اليوم قد اصبح منوطا بمؤثرات خارجة عن ارادة الامم التي ترغبه وتريده ..

واذا كان لاغنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن عزام باشا التي سلفت ..ولنستمع لصوت مصري مسئول آخر ـ هو الاستاذ حسن سليم بك ـ رئيس مكتب الاستعلامات المصري بنيويورك :

لقد وقف في النادي الدولي للطلبة بجامعة « كولومبيا » وقال :

« ان روسيا لم تهاجم مصر قط .. اما انجلترا وفرنسا فقد هاجمت كلتاهما مصر اكثر من مرة .. »

كلمة واحدة ، فاسمعوها ..

اما ان نحالف انفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من يريدهما .. واما اذا لم يكن من الحليف بد ، فلنحالف روسيا ..

روسيا .. ؟!

نعم .. روسيا .. وهل بدارة يا للناس من عار ..؟

نحـــالف روسياالدولة . . لا الشـــيوعية . . المذهب . .
لقـــد حالفتها امريكا ـ ولاتزال ملاذ الراسمالية . .
وحالفتها بريطانيـا ، ولم تصرشيوعية . .

ومنـــذ اربعة اعوام تقريباحاولت امريكا ان تعقد خلسـة اتفاقا مع روسيـا دون أن تعلم بريطانيا وفرنسا . . لولا أن اعلن مولوتوف ذلك فى اذاعـــة لهفضحت الدولةالمحترمة جدا . . امريكا ! . .

ان دولتى «المحور» بريطانياوامريكا ـ لاتســـاعداننا ، ولا تدعان الغير يساعدنا . .

لقـد حرمونا من السلاح . .بينمـا ابدت روسيا استعدادها لتزويدنا بالسلاح الذى نريد . .ولكن « المحـور الاستعمارى » هدد حكوماتنـا ، وحذرها . . فالىمتى سنظلنجبن ، ونخاف؟

لقد وافقت بريطانيا بعد طول تذلل ورجـاء ان تورد لنا بعض الاسلحة فى عام ١٩٥٦ . .
اتدرون ـ لمـاذا . .؟

لكى تكون اسرائيـل قد بلغتمن القوةوالتمكن مايجعلنا نحجم عن استعمال السلاح ضدها . .!
هؤلاء هـم الحلفا الشرفاء .!!

وفى نفس الوقت عرض وزيرروسيا المفـوض باسم حكومته على حكومتنا استعداد روسيـاالتزويدنا بكل مانحتـــاجه من طائرات ، واسلحة ثقيلةوخفيفةـ على أن تسلمها لنا من فورها . . ليس ذلك فقـــط . . بلوابدت استعـــدادها لتسلمينا مايلزمنـــا من آلات الصناعةوالزراعة الحديثة . .

فماذا كان جواب حكومتنا . .؟

تجيبنا على ذلك صحيفةتنطقباسم الحكومة فتقول :

« والمفهوم أن ولاة الامور قدتلقوا هذه العروض بالشكر » !!

***

كونوا انجليزا ..

لماذا تصر بريطانيا على أن تربطنا بعجلتها هي وامريكا ؟

لماذا تريدان أن تسخرانا لمحاربة روسيا .. ؟

أليس يرضى بريطانيا أن تكون بريطانيين .. وان نتخلق بأخلاقها الطاهرة الفاضلة .. ؟!

سنصنع ذلك . !

واذن فاسمعوا .

عند ماثارت بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ ـ طلبت روسيا ، والمانيا ، والنمسا الى انجلترا ان توقع مذكرة احتجاج قاسية على تركيا .. فرفض رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وهو ... «دزرائيلى» وقال : ـ

« كيف تساعد انجلترا فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها ..؟

« وكيف تتعاون مع بسمارك الصديق الذى لايعتمد عليه ؟ »

رضى الله عن دزرائيلى هذا ..وسنردد اليوم نفس كلمته ، ونقف نفس موقفه .. ونقول : ـ

كيف تساعد مصر فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها . . وهى روسيا ..؟

وكيف نتعاون مع بريطانيا .. الصديق الذى لا يعتمد عليه .؟!

هذا اذا تسامحنا ، وافترضنا بريطانيا صديقا ..

واذا ماسئلت : كيف يكون لمصر صالح فى بقاء روسيا سليمة قوية ..؟

اجيب : سلوا مستر « اتلى » فهو الذى يقول ذلك ـ لا انا . .

واذا كنتم قد نسيتم . . ، فاعيدوا تلاوة كلمته التى مرت بنا من قبل ، والتى قال فيها:

«لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند والباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »

اذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الامم استقلالها . .

ويوم ينتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى أن تسلم لنا بحقوقنا كافة . .

ان بريطانيا تتدلل علينا ، وتستهتر بنا ـ لانها على يقين بأن سادتنا لن يمدوا أيديهم البضة المترفة الى روسيا ابدا

ووالله لو أحست ادنى احساس بأننا سنفعل لتكونن اسبق الى ماتريد منا انفسنا . . !

فلنحالف روسيا دون أن نكون شيوعيين ـ ان ذلك ممكن جدا بدليل ماقلناه من ان بريطانيا وأمريكا حالفتاها دون أن تصيرا شيوعيتين .

انه فى الوقت الذى تصرح فيه امريكا بأن مصر منطقة نفوذ بريطانية . . يعلن وزير خارجية روسيا فى حديثه لجريدة المصرى فى ٢٧ /١١/ ١٩٥٠ ماياتى :

«لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين ان الاتحاد السوفييتى سيظل دائما فى جانب الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار البريطانى ، وعندما عرضت المشكلة المصرية على هيئة الامم المتحدة منذ اربع سنوات ـ دافع الاتحاد السوفييتى عن حقوق هذه البلاد التى اصيبت فى كرامتها بوجود القوات الاجنبية فى ارضها ـ وفى كل عمل تريد ان تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصرى للتخلص

من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفييتي دائما الى جانبهما ..

« ان مكافحة الاستعمار لاتتحدد فى نظرنا ، ضمن نطاق بلد أو بلدين ، بل اننا نرى وجوبها فى كل بقعة من بقاع العالم »

« ان الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصرى يجب أن يعترف بها ، وان تتحقق .. »

***

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين . . موقف بريطانيا وامريكا من جانب .. وموقف روسيا من جانب آخر نتردد فى اختيار حليفنا ، اذا كان لابد لنا من حليف ..؟

الاشتراكية . . والسلام !..

واذا كان المرتكز الثانى للاستعمار فى بلادنا هو تخويفنا بالشيوعية ، وبالحرب .. فليكن موقفنا من الشيوعية أن نسبقها بالاشتراكية .. ونطبق من نظمها مايسمح به تطورنا وامكانياتنا ..

ثم لماذا نخاف الشيوعية .؟

لقد أعلن «ستالين» ، واعلن أيضا «فيشنسكى» ان الشيوعية والراسمالية تستطيعان أن تعيشا بلا حرب ولا خصام ..

ولكن الانجليز يخوفوننا بالشيوعية لنرتمى فى أحضانهم ، بل ويصنعون لانفسهم حركة معينة موسومة بالشيوعية لينفذوا عن طريقها اغراضهم الاستعمارية الخبيثة .. !

واذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام ...

انه يوم يقر فى ذهن السياسة البريطانية اننا لن نحارب معها ولا فى سبيلها .. واننا لن نسمح لبريطانيا ولا لامريكا ولا لروسيا – أن تكون بلادنا ميدانا لجيوشها .. وحقلا لتجربة

أسلحتها ، فان بريطانيا ستفكر فى مسألتنا تفكيرا سديدا .

فلنردد كلمة المراغى من جديد لن نخوض حربا لا ناقة لنا فيها ولا جمل ..

ولنعلن من اليوم أننا «سلاميون» نريد السلام ، ونقف بجانبه ..

ولكن – اى سلام نريد ..؟

لقد صار السلام فى عالم اليوم صنوفا وألوانا ..

اننا نريد السلام الذى تثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه ظروفنا الخاصة دون أن نتأثر فى هذا بأية مؤثرات أجنبية أخرى .. وبعد ذلك لن يضيرنا ابدا ان نناصر السلام ، ونتشبث به ..

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا يخطب فى مؤتمر نقابة المحامين الفرنسيين يوما فقال : –

« لقد عرفت فرنسا الاحتلال الاجنبى ، وذاقت مرارة الاعتداء ولذلك فشعبنا سوف يدافع عن استقلاله الوطنى بكل شجاعة – الا اننا لا نريد أن نخاطر بكياننا مخاطرة جنونية .. **ولذلك نريد السلام لان السلام العالمى شرط اساسى للاستقلال الوطنى . . »**

واذا كان الشعب البريطانى قد وجد من الحرية ما يجعله يصرخ يوما فى وجه وزير حربيته **لا حرب من اجل الدولار . . .** فاننا نمنح أنفسنا من الحرية ما نصرخ به فى وجه المستعمرين « لا حرب من أجل الدولار ، ولا من اجل الاستعمار ..

* *

وخطب السنيور (جونلر) وزير المعارف الايطالية ، وعضو الحزب الديمقراطى المسيحى فقال : –

« ان السياسة الخارجية للوزارة الايطالية قائمة على مبدأ

دستورى هو ـ اننا ضد الحرب.. وضد اى عدوان على أرض الوطن .. »

ان الاستعمـــار يعمل فى كل مكان لاعـــداد ضحاياه للحرب

وان خبراء الحرب من رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمعســكرات .. وبكل تبجح ووقاحـــة يتصرفون فى أخص شئوننا كما لو كنا أحد شوارع لندن ، اوباريس ، اووشنطن.!

ولقــد بلغت الجــراة بالمقيم الفرنسى ان قال :

«اذا قامت حرب عالمية اخرى .. فسأركض الارض برجلى ، فينبثق منها جيش جرار من المغاربة » ..!!

واجابه الامير عبــد الــكريم الخطابى بمنشور لافح خاطب فيه بنى وطنه قائلا :

« ان عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم أن ترفضوا دعوة الفرنسيين الى التطوع فى جيوشهم . لانهم يدفعون بكم الى التضحية فى سبيل المحافظة على امبراطوريتهم المتداعية ..

«ان ساعة تحريركم من ظلم المســـتعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم الى جيوشه»!

مؤامرة على مقدساتنا ..

وبلغت الجراة بامريكا أن تجعل من « الظهران » قاعدة حربية لضرب روسيا بالقنابل الذرية ...

وما الظهران هذه ... ؟

انها أرض بالحجاز بينها وبين المســجد الحرام ، ومســـجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة او هو اقرب ...

ترى هل ستظل روسيا ساكنة ساجية ازاء هذه القـاعدة الحربية التى ستنقذف منهـا حاملات الموت والدمار .. ؟

كلا .. وعندئذ ستحاول لا محالة ضربها ، وضرب ما حولها

.. والذى حولها ـ يا اربعمائة مليون مسلم ـ هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق .. !

لماذا لم تتخذ أمريكا من الفاتيكان قاعدة حربية .. ؟

لانها تخاف عليه ، وتقدسه .. وتغار على ساحة القديس بطرس أن تمسى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات .. !

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار أمريكا للظهران قاعدة حربية بحروف بارزة صارخة .. ومع هذا لم يتحرك أولئك الذين استطار بهم الذعر يوم همت بعض أعمدة المسجد النبوى أن تنقض وتتداعى .. !

ترى هل المسألة من السهولة واليسر الى الحد الذى لا يستجيشهم، ويثير غيرتهم ..؟!

انها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها أمريكا يا سادتنا المؤمنين ..

فنحن لانضمن ، وفى ضباطها يهود كثيرون ـ أن يضرب أحدهم فى غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لا نضمن أن تصنع أمريكا نفسها ذلك لتصطاد عصفورين بحجر .. فتدمر هذه المقدسات أولا .. وتذيع أن روسيا هى التى اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانيا .. !

أن هذه الخطة الوقحة ، التى اختطها الاستعمار الامريكى ، لتفتح أبصارنا على حقيقة مستيقنة ـ هى أن أى تمكين دبلوماسى أو تجارى لدول المحور الاستعمارى فى بلد يفضى بها الى كارثة ...

لقد دخلت أمريكا الحجاز تاجرة ... تستخرج البترول وتبتاعه ... وبعد عشية و ضحاها أصبحت مستعمرة .. مستعمرة بكل معانى الكلمة .. وأنشأت دون اكتراث العالم الاسلامى كله قواعد حربية فى أرض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك ..

لترجع أمريكا عن فيهـا ، و لتغادر الارض المقدسـة التى دنستها .. والتى تريد بهامزيدا من الدنس والدمار ...

**

ولتخرج انجلترا من بلادنا اذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ، فاستعمارها اكبر محرض عليها ، وداع اليها ..

واذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم اننا ـ حكومة وشعبا ـ قد آثرنا السلام ، وقررنا الا تكون الحنطة التى تدور عليها طاحونة الاستعمار.

ليثق بعضنا ببعض

واذا كان الاستعمار البريطاني يتوسل ايضا لبقائه بتبديد ثقة كل منا بمواطنيه .. ويرسل الاشاعات الكاذبة ليفسد بهـا ضمائرنا فلنضع نحن أصابعنا فى آذاننا ..

وليس ثمت واجب يتجلى فيه الالتزام الفردى ، كهذا الواجب .

فلاتصدقوا اشاعة ولا اتهاما .. ولا تروجوا لاشاعة ، ولا اتهام ..

لقد سأل الرسول عليه السلام رجلا يتهم آخر فقال : « اترى هذه الشمس ؟.. »

قال : نعم ..

قال الرسول : على مثلهـا فاشهد ، او دع ..

وكان يقول :

« لا تبلغونى عن أصحابى شيئا ، فانى أحب ان اخـرج اليهم منشرح الصدر .

واخبر ان ابغض الناس اليه ، وشرهم مكانا عنـد الله .. الملتمسون للأبرياء العيب .

اذا جاء من يتهم مواطنا لك .. فأعرض عنه ؛ واذكر دائما

ـ ان السفارة البريطانيــة غير الرسمية . تعمل ليلها ونهارها لهذا الغرض الدنيء ، فأفسد عليها امرها ومسعاها .

ان زعماءنا ـ مهما نشتد فى نقدهم ـ ليسوا شرا خالصا .. وانمــا هم على اسوأ الظنــون والفــروض ، قوم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا .. فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على التخلص مما بهم من سوء.

* *

نحن .. وحدنا .

واذا كان الاســتعمار يلهينا بالمنظمات الدوليــة ، فلنــكن ايقاظا .. ولنعتمد على انفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية نبرز بها شخصيتنا الدولية فقط .. أما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك اليها الطريق وحدنا .. وهذا يفضى بنا الى النقطة الاخيرة وهى :

* *

الاحتلال المسلح .

فى سنة ١٨٧٥ . قال دزرائيلى: ان روح انجلترا هى الحرب ـ مادام ذلك دفاعا عن كيانها ..

وفى سنة ١٩٤٢ ـ قال تشرشل: اذا خيرنا اعداؤنا بين الحــرب أو العار ، فسنختار الحرب .. وســنقاتل على الشــواطيء ، ونقاتل على المهابط، ونقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وفى الجبال ... سنقاتل من اجل حريتنا .. ولن نستسلم ابدا .»

وبعــد أن وضعت الحــرب الاخيــرة أوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولاندا واندونيسيا ـ اذاع « احمــد ســوكارنو » رئيس جمهورية اندونيسيا هذا الامر على الشعب !

ـ عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد . ستكون اندونيسا جميعها ـ الحــكومة والجيش والشعب ـ فى حرب فعلية مع

هولاندا الغاصبة .. وسنقاتل بكل الاسلحة .. بالمدافع .. والبنادق ، . والخناجر . . والهراوات . . والعقارب . . والثعابين .. ولينصرالله الوطن.

**

فى هذه الكلمات الثلاث ـ يا مصر ـ تتمثل الوسيلةالواحدة لاجلاء البريطانيين الغــزاة .. وكل طريق أخرى لن تفضى الا الى مذلة ودمار .

واذا كانت الحــكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩

فان واجبها فى سنة ١٩٥٠ انتقود بنفسها الثورة المشروعة ضد الاحتلال الرجيم متأسية بمبادىء انجلترا نفسها ـ التى وضعها دزرائيلى ، وتشرشل.

نعم ـ اذا خــيرتنا انجلترا بين الحرب والعار.. وجب أن نختار الحرب فورا

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقى أن نختار .. فلنذكر جيدا ـ انالحياة لاتستحق أن نشتريها بالعبودية والرق ..

وان البريطانيين لن يغادروا بلادنا طوعا .. بل كرها ، وهم صاغرون .

اذا لم نطرد الاستعمار

الى هنــا نكون قد اجملنــا الحديث فىوسائل تمصير مصر، وتخليصها ..

بقى انتذكر ـ انه ليس حب الاستقلال وحده هو الذى يحتم علينا هذا التمصير .. بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء ..

ان الحوادث تمربنا مسرعة، وهى تجلجــل كدقات ناقــوس هائل ـ باننا اذا لم نشتت شمل الاستعمار، فسيشتت الاستعمار شملنا .. انه يهيىء لحــرب اهلية تقوم فى مصر ليدفن تحت انقاضها مصيرنا .

لابدمن الصراحة ، فاسمعوا ..

لقد بث الاستعمار الغامه فى حياتنا كلها ، واعدها للتفجير . ولقد خلق «الفتنة الكبرى» بين هيئـة كبيرة وحزب كبير .. ولعب لعبته من وراء وراء .. وحقق للأسف ــ دون ان يظهر على المسرح ــ كل ما يشتهى ويريد .. وافلح بهـذا فى ان ملأ بحوافز الثـأر ، ودواعى الانتقام ــ نفوسا كانت مفعمة بحوافز الانقضاض على الاستعمار ، ودولته ، وجيوشه ..!

ومن ناحيـة اخرى ــ خلق نشـاطا شـيوعيا انجليزيا ــ واقنـع الحاكمين بأن العاصفة فوق رءوسهم ، فمضوا ينكلون بمواطنيهم .. وملئت نفـوس أخرى بالحقد . لاعلى الانجليز . بل على مصريين مثلنا .! وصار الشعب يلعن حكوماته ــ والحكومات تتعقب الشـعب .. والمفسـد الأكبر ــ ذلك الاستعمار البغيض ــ رابض يقهقه فى نشوة وجذل .!

* *

فاذا كنا حريصين على وحدتنا ، وبقائنا ــ فلنرفع تجاه القلوب المتناحرة ، والوجـوه المتنافرة املها القـديم ــ يوم أن كانت جميعا .. ولم تكن شتى .. أملها فى الظفر بالاستعمار وطرده واقصائه .

واذا لم تفعـل ، فستنطلق الاحقـاد المكظومـة ، والترات الموتورة فتمزقنا شر ممزق .. وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال شوارع القاهرة مرة اخرى . وتدوس الأشلاء المهينة .. اشلاء الذين واتتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا .. فأبوا .. وضلوا ضلالا بعيدا .

يا ليت قومى يعلمون ..!

اذا لم نلاق الاسـتعمار فى ملحمة عاجلة ، فسنلاقى انفسنا .. حيث يفنى بأسـنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقاب بعض .

ولو وجـد فينا اليوم رجل رشيد ، فلن تكون رسالته سوى

ان يركمنا جميعا فى قذيفة واحدة يقذف بها الاستعمار البريطانى فيرديه ، ويحيينا ..

* *

اتخافون انجلترا يارجال .؟

اذن ، فاقرءوا ــ وهذا خير ما نختم به الحديث ــ نداء الانجليزى العظيم «توماس بين» الى الامريكان يوم وقف يحرضهم على قتال بريطانيا فى حرب الاستقلال .

«سلونى عن الانجليز ، فانا اعرف بهم منكم .. انهم لن يخرجوا من بلادكم الا كرها.. ولن يغادروها الا مقهورين .، فلا تجبنوا عن لقائهم ..

« ليس على وجه الارض انسان يمكن ان يكون جبانا ــ المسألة كلها موازنة .. اما أن الخير فى الاقتحام ، أو الخير فى الهرب .. وليس العيب عيبكم .

« انكم توشكون أن تجعلوا اقوى دولة فى العالم تجثو على ركبتيها ، ولذلك فانتم ترتعدون

« ايها الأخوة ..

« ثقوا بالنصر ..

« اجعلوا ايديكم تدافع عن اسلحتكم ، وليس العكس ..

«غطوا وجه الارض بأساطيركم

«غنوا ، واستبسلوا ..

«وأحبوا ، وقاتلوا ..

« دعوا زوجاتكم ، واولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا ..

«فكروا فى النصر وحده ..

وبعـــد ..

« ان الحوادث لا تضيرنا .. ولكن الذي يضيرنا بحق ، هو تقديرنا لها .. وهذا التقدير متروك لنا وحدنا ... »

مونتـــاني

الى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا جهد هذا البحث المقتضد الموجز ـ أن ننفض عن امتنا طغاوة البغى، ورهج الانكسار، ونعاونها فى فض قيودها وأغلالها

واذا كان الله لا يساعد الا الذين يساعدون أنفسهم ، فمما لا ريب فيه اذن أن أمرنا متروك الينا .. وأن مصايرنا قد وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب أن تملأ وعينا . أن الشعوب التى كانت تبيع نفسها فتوبقها، قد ضجت فى قيودها.. وهى اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها ..

اترانا من هذه الشعوب الميممة وجهها شطر التحرر والانعتاق؟ اذا لم نكن منها ـ فيجب أن نكون .

وعلينا أن نبذل من انفسنا أطيب البذل لنبلغ ما نريد

ونحن مصرون على أن يعود الضمير « نا » الى الشعب ، والحكومة معا .. أن الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل يحرر مصر من أعدائها ـ ومن نفسها .. وقد يرى بعض المواطنين أن استنجادنا بالحكومة وتشبثنا بمزاملتها للامة فى الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب. وهذا خرص يحتاج الى الفطنة وحسن التقدير فنحن لاننسى أن حركات التحرير لم ترفع ألويتها قط الا على أكتاف الحفاة العراة الكادحين .. ولكننا لا ننسى ايضا أن سواس الامم اليوم غير سواسها بالامس ، وانهم مهما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فانهم يخشون بأسها ، ويحذرون انتفاضها .. ويحاولون جهد وعيهم أن يقابلوها فى الطريق. فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء ـ؟

ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا أن نعمل معا ـ حكومة وشعبا ـ فنحن متفقون على ان محاولات النهوض جميعها مكتوب لها البواء بالفشل ، ما دام ذلك السرطان ألوقح يجوس خلالنا ، ويعيث فى بلادنا . .

ومن سوى الاستعمار البريطانى نعنيه بالسرطان .. ؟!

ونحن متفقون ايضا على ان عصر الخيانات قد تولى وتقوض .. واستيقظ فى الشعب وجدان ثائر مستريب يقظان . لا يزدرد

الخيانة فى يسر ، ولايتجرع الافك فى صمت ..

ومتفقون مرة ثالثة على ان ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبررا لاستغلاله وهوانه . . فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخيا واعيا وهادفا . . ولايسمح شعب حر ان تطوق حكومته شعبا آخر بالسلاسل والاصفاد .

من كان يظن – ان يقف فى فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز» وتقف من ورائه صفوف الجماهير التى لا تنتهى عند مد البصر .. فيعارض والجماهير معه – ارسال جيش فرنسى الى الهند الصينية لمحاربتها ، واخضاعها للاستعمار الفرنسى الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب ابناؤنا واخوتنا من اجل استعمار غيرنا .. دعوا الهند الصينية تتحرر .. انهم بشر مثلنا » .. !

بل من كان يظن ، عندما تمادت الحكومة الفرنسية فى استهتارها .. وطفقت تعد حملة عسكرية لتاديب تلك البلاد – ان يدعو « توريز » هذا جهارا علنا ، الى عرقلة المجهود الحربى الظالم الذى تكتله حكومته ضد الهند الصينية .. ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية فى تعويق الحملة ، وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخطيرة فى تاريخ الحرية ..

انها انبثاقات ضمير جديد يتكون حثيثا فى البشرية الجديدة .. البشرية التى تريد ان تسوى فى التقدير والاحترام بين سائس الخيل ، وحامل الصولجان . . وبين اضعف الشعوب ، واقواها . . البشرية التى قررت أن تضع حكوماتها فى خدمة مبادئها . . لا ان تسخر مبادئها لاغراض حكوماتها ..

البشرية التى وقفت على سر ظفر الذئاب بها .. وهو انها كانت تسير فى موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها – تظفر الذئاب منها بكل مستفردة قاصية . . فتعلمت وعرفت .. وقررت ان تجمع شملها ، وتضم الفتها ،

وتصل لنظامها ، وتتحرك في الموكب العتيد متشابكة الايدى . موصولة الصفوف ..

الا انه من الغفلة ان يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحريته ـ كائنا ما كانت قوة الحاكم ، وضعف الشعب ..

ومن الصفاقة الممتازة .. الا يرى حاكم شعبه جديرا بالحرية ـ ثم يرى نفسه جديرا بالتفرد والاستبداد .. !

فلنذكر جيدا ـ ان الشعب مهما تكن ضآلته وانحطاطه ، جدير بالحرية جميعا . لان الحرية ليست مثوبة يثاب الشعب بها ، او نوطا من انواط الزينة والتكريم يزين صدره .. بل هي حياته .. هي وجوده .. هي ضرورته الكبرى التي لا ينهض بسواها ، ولا يحيا ..

واذا كنا قد اهتدينا في مسيرنا عبر هذا الكتاب الى وسائل التحرير والخلاص كما نراها .. وربما ايضا كما يراها بقية المواطنين ، فقد بقى امامنا ادراك حقيقة هامة .

يقول الفيلسوف « جوته » :

« ان التفكير سهل .. لكن العمل صعب .. والعمل وفاقا للتفكير هو اشق واجبات الحياة ، واهداها سبيلا . »

ونحن الى اليوم شعب يحس كثيرا .. ويفكر قليلا .. ولا يعمل ابدا . !

ولكنه مع ذلك ، وللاسباب التى أبديناها آنفا ـ يستحق الحرية .. جميع الحرية .

والواجب الذى يتوسل به لحقه . يشع من كلمات ذلك الفيلسوف .

فلنفكر لانفسنا في دقة وعمق .. ولنكون لها ، ونحن نفكر ـ ارادة العمل .. فاذا ما انتهينا من انضاج الفكرة .. انتهينا ايضا من انضاج الارادة .. عندئذ نعمل في ثبات وجراة وفق تفكيرنا الواعى ـ لا وفق عواطفنا المتميعة .

اننا حتى الآن ـ لا نجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا

وسـاوس غامضـة . . وعملنا انفعالات غريرة .

هكذا نحن ـ الدولة والمجتمع

فالـدولة لا تزال تؤمن ان خلاصـها من المسـتعمر يأتى بالسلم عن طريق المفاوضات . . ويأتى بالحرب عن طريق التمثيل والمظـاهرات . . والشعب على دينها من المؤمنين . . !

وهنا يبين حظنـا الوافر من قلة التفـكير . . فلو اننا فـكرنا تفـكيرا مركزا لا انتهينـا الى ان انجلترا دولة تحتـرم القـوة ، وتحتقر الحق . .

دولة تؤمن بحقـوق الانجليز اولا . . ثم حقوق الانسان ثانيا !

دولة يجلد رجـالها عراة . . فتنشىء للجلادين دولة . .

ويكرم رجالها فى نادى «العلمين» فتعض الأيدى التى اكرمتهم ، وتبصق عـلى الوجـوه التى استقبلتهم . . !

نعم ـ لو أننا فكرنا ، لاعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الانجليز . . لانه فقط يخـدعنا ، ويطيل امد مكثهم بيننا . . ولبحثنا عن الحـاكم الذى يصنع كمـا صنع « أحمد سوكارنو » ـ فيقود الامة والجيش الى التحـام هـائل مع قوى الشر والضـلال التى أفنتنا وسوت بنا التراب . . !

ما ذا وراء هـذه المخاطرة من عاقبة . . ؟

الموت . . ؟

ما اعذب الموت اذا حان الاجل!

ان رائدا من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحـلاوة السلم ان نشتريهمـا بالاغلال والرق؟ وقانا الله ذلك . ! »

« لست ادرى اى نهج ينهجه غيرى ، اما انا فاقول : **الحرية** . . **او الموت . ! »**

وضعف تفكيرنا ايضا هو الذى يجعلنا نسىء الظن بالحرية ، ونخاف على النظام من ضراوتها• ونحاصر الامة بسلسلة عاتية من القوانين والاجراءات ..

ولو اننا فكرنا جيداً لعلمنا ان الجهد الذى نبذله لترويض الشعب على احترام القوة ثم لا يجدى ــ خير منه جهد يبذل لترويض الشعب على احترام الواجب ، ثم يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذى جعلنا عزين واشتاتا .. يكيد بعضنا لبعض ، ويلعن بعضنا بعضا ...

ولو أننا فكرنا قليلا ، لرأينا الارض المشتركة التى تجمعنا كافة ــ من كل الهيئات ، والاحزاب ــ هذه الارض المشتركة هى « ارادة التحرير » ..

كلنا ــ نحن الشعب ــ متفقون على ارادة التحرر مما نحن فيه من ذل واستعمار واستبداد . والخلاف بيننا فى الوسائل ، وهو لهذا خلاف صغير لايعتاق سوى القلوب الصغيرة ، والعقول الصغيرة .. فلنتكتل معا فى هذه التخوم المشتركة ، والارض الجامعة

التفكير السديد ــ والعمل وفق هذا التفكير ــ هما الخطوة الاولى يا رواد التحرير والانقاذ

والشعب الذى يكتظ فكره بالبغضاء ، والثار ، والحسد ، والتربص ، والعجز ، والتلاوم ــ لن يكون شيئا ما ، فى يوم ما .. وسيظل رمزا لما تستطيع هذه الافكار الرديئة السوداء أن تصنعه لتمزيق الامم والجماعات

فلنغسل تفكيرنا من هذه الاوضار .. ولنواجه مشكلتنا الكبرى بأفكار مستقيمة مستبشرة باسلة .. ولنحول طاقة الثار والحقد التى تغص بها نفوسنا الى عدونا الحق ــ المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل أفكارنا وتتراجع عندما نوجهها لملاقاة مشكلة الاستعمار البريطانى ... ؟

ولماذا تقاحم وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا ببعض ، وتجعلنا عبرة واحاديث .. ؟

لماذا تجبن فى الاولى — وتستبسل فى الثانية .. ؟

السبب انها افكار طائشة ... بل هى ليست أفكارا على الاطلاق .. لكنها انفعالات غريرة مجنونة تتسرب خلالها — واأسفاه — كل طاقتنا .. حتى اذا يممنا كفاحنا شطر الاستعمار — لم نجد من أنفسنا ناصرا ولا ملتحدا .. !

يقول فيلسوف حكيم :

« أن المرء لا تضيره الحوادث ، وانما الذى يضيره بحق — هو تقديره للحوادث .. »

فلنقدر الحوادث التى تقع بيننا — نحن المواطنين — تقديرا كريما يرتفع بنا عن التناحر ..

ولنقدر الحوادث التى تجرى بيننا وبين الاستعمار تقديرا يندفع بنا الى مناهضته ومقاتلته

ما أروع محمدا عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين .. الله ثالثهما ... !

ان هذا التفكير المؤمن بالنصر ، الواثق بالفوز ، والعمل وفق هذا التفكير ، وكان ساعتئذ يتمثل فى الهدوء ورباطة الجأش — هما اللذان صرفا عنه ابصار الذين لو نظر احدهم تحت قدمه لرآه .. ورأى صاحبه معه .. !

لقد انتهى العهد الذى كنا نتساءل فيه : ماذا نعمل .. ؟

وحل عهد جديد شعاره : يجب ان نعمل

وبعد — فها انت ذا تبلغ ختام الكتاب .

أتظن ان ما بينك وبينه قد انتهى ببلوغ هذا الختام ..؟

كلا .. فالآن يتلقفــه عقلك الكامن ، ووعيك الباطن ليصوغا لك منه فكرة .. ويرسما نهجا .. ويصطنعا ارادة تحدث بعد ذلك أمرا ..

فلندعهما الى حين ..

ولنتصور من جديد ذلك الشوط الذى قطعناه .. لقد سرنا هكذا ...

شعب فى السلاسل .

الحرية .. هى الخلاص .

الشخصية .. كى تعمل

لمصير مصر .

* *

ان هذه الشمس التى تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء الحرية ..

وهــذا الفجر الذى تتشقق عنه ارحام الليالى وأكمامها ـ يذكرنا بضوء الحرية ..

وهذا الربيع فى مهرجانه الطليق الحافل .. يستجيش حنيننا الى الحرية ..

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطغاة : ـ

متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ؟

تسوقنا سوقا عنيفا لمعركة الحرية ..

***

واذا سئلنا ـ ما نحن .. ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد أن يصحح شخصيته .

ويحقق حريته ..

ويعلى فى ربوعه ونجوعه حقوق الانسان .


Bibliotheca Alexandrina
02274775
